

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات

قبسات من سير المعصومين

(٢)



قلمٌ خط الصلاح .. ونورٌ مزق الظلام

تأليف

موفق هاشم عبيد



شعبة الدراسات والنشرات

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: النبي محمدﷺ في المدينة(قلمٌ خط الصلاح .. ونورٌ مزق الظلام)

تأليف: موفق هاشم عبيد.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود.

التصميم: علاء سعيد الاسدي.

الاخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠ .

رجب الأصب ١٤٣٨هـ – نيسان ٢٠١٧م

تقديم

قلب أتعبه عناد الظالمين!

وجسد أعياه تجاوز المعتدين!

وروح تتوق الى موطنها لتُعَمِّر فيه وتَعْمُر!

سلام على من طوى رحلة العذاب مفارقه!

وسلام على من هبت رمال الصحار تعانقه!

ها هي نسمات مقدمه بدت تضرب وتدلدل أبدان المتلهفين إليه!

وها هي خيوط فجره بدت تملأ سماء يثرب وفضاءها الرحب!

ستشرق الشمس حاملة الأمل البعيد انتظاره!

وتنثر النور بأطراف البلاد لاحناً بأخباره!

هاجت المشاعر شوقا بلقيا المنقذ! والحبيب بدأ يقترب من ديار الامان، وملاذ السلم والانصار! أخذ صبر الجميع ينفد! فالغالبية منهم آمنت به واتبعته دون ان تراه! وها هي اللحظة المنتظرة في اللقاء به والتبرك بنوره! الجميع يتطلع الى ذلك القادم من وسط الصحراء،

حتى يهود المدينة ومشركوها! ذلك المتوقع منه ان يغير موازين العالم ومعادلاته لصالح الحق وأتباعه! نعم فتباشير الانقلاب على الواقع المنحط بدت تلوح في الأفق من المدينة!

وقف الناس بأطراف المدينة يتطلعون ويحدقون من بعيد؛ عسى ان يروا قدوما ما! طال انتظار الناس، وحلّ بهم التعب؛ جراء كثرة الوقوف تحت شمس النهار العالية! وفي الاثناء لاح لأحدهم نفر مقبل من عمق البيداء! بدأ الجمع في حالة من الاستنفار والتأهب! حتى صاح مسلم يرتقي مرتفعا: إنه لرسول الله! يا للبشرى رسول الله وصل الى المدينة! هلع الناس سعيا يركضون باتجاهه! مستبشرين ضاحكين! قلوبهم مليئة ودّا وسعادة.. استقبلوه بالأنشودة الخالدة:

طلع البدر علينا
من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبا يا خير داع

طارت قلوب المسلمين فرحا بالوصول المبارك! ودهشت الناس

بذلك الذي ملأ العالم صيتا! الكل يريد ان يراه! والكل يريد ان يسمع صوته! خطف العقول قبل القلوب! ها هو نبي الرحمة محمد ﷺ أمامهم بلحمه ودمه! ينظرون إليه من قرب وعن كثب! يتطلعون الى كلامه! و يحدقون في صورته وأفعاله! بعد انثيالهم عليه سيلا من أعالي سفوح الاشتياق! الساعية صوب واديها المرمل!

استقبل الناس نبيهم الكريم، وتنافس زعماء القبائل على ضيافته! فكل يريد ان يتشرف به! وكل يريد ان يتبرك بخدمته! وصار يوم مقدم الحبيب ﷺ الى المدينة يوما مفصليا! ولا يوم مثله في الفرح والسعادة! إنهم أصبحوا في رحاب الرسول الاعظم! وفي حضرته، وتحت سيادته! فأي سعادة أحب منها؟! وأي فرحة تسمو عليها؟!



أعمال أول العهد في المدينة

من يثرب الى طيبة!

وطن بهذه الاهمية، وبلاد بهذا الاعتبار، لابد ان تحمل عنوانا يليق بها وبالقاطنين فيها، ولابد من توافق بين الشكل والمضمون.. والعنوان والمعنون، ولابد من تغيير وإن كان شكليا.. إلا ان أثره المعنوي كبير جدا! هذا ما وجده النبي صلى الله عليه وآله في اسم يثرب! لأجل ذلك عمد الى تغيير اسمها؛ لأن هذا الاسم لا يلائم هذه المدينة وأهلها! فيثرب في اللغة يعني محل المرض! فاختار بدلا عنه اسم طيبة! وهذا الاسم جميل ذو وقع في نفوس اتباع النبي صلى الله عليه وآله من المهاجرين والانصار! ثم وبعد ان مرت الايام تغير اسم طيبة الى مدينة الرسول؛ تيمنا وتبركا بالحبيب صلى الله عليه وآله.

أول مسجد في الاسلام

يُذكر أن النبي صلى الله عليه وآله قبل أن يدخل المدينة نزل في قباء، وقد نزل هناك عند بني عمرو بن عوف عند كلثوم بن الهدم، والسبب الذي دعا النبي صلى الله عليه وآله الى ذلك النزول هو لكي يلحق به أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب بمعية الفواطم: فاطمة بضعة النبي صلى الله عليه وآله، وفاطمة بنت اسد أم الامام، وفاطمة بنت عبد المطلب.. وجاء كذلك بأم أيمن معهن بعد أن

عانى الامام ما عانى من تعب الطريق وأخطاره!

وفي تلك الاثناء التي قضاها حبيب القلوب صلى الله عليه وآله في قباء قام بتأسيس مسجد عرف لاحقا بمسجد قباء، وهو أول مسجد بني في الاسلام، ويبدو أنه قد شُرِع في بنائه بعد وصول الامام علي عليه السلام الى قباء، ثم شُرعت صلاة الجمعة في ذلك المسجد..

مسجد النبي صلى الله عليه وآله وبيته

هنيئا لبقعة كتبت لها الاقدار ان تكون مسجدا للنبي صلى الله عليه وآله! وهنيئا لعرصة وقع الاختيار عليها ليطأها فراش الحبيب وبدنه! منها ستشع شمس الدفء والضياء! لتروي ظمأ الانسان.. الجاثم على صدره خفافيش الظلام! ومنها سينطلق شعار التوحيد ليعم العالم بأسره! فيا ليتني كنت منثورا بأرض لها الشرف العلي أن تقبّل أقدام الحبيب صلى الله عليه وآله! وترابا تذره الريح فيتعلق بأستاره! وفناء بيت يعانقه أينما حل بجوانحه!

فلما ان وصل النبي صلى الله عليه وآله الى مكة حتى تقدم كثير من اهل المدينة يطلب كل واحد منهم ان ينزل عنده في بيته، لكنه صلى الله عليه وآله كان يردهم رداً جميلاً، طالباً نهم أن يتركوا الناقة تسير الى حيث شاءت؛ فإنما هي مأمورة! نعم فقد كانت الناقة تسير الى مكان قد خطه القدر! مكان سيكون فيه مسجد الحبيب صلى الله عليه وآله وبيته ومقر حكومته!

عند وصول الناقة الى المكان المحدد، سأل النبي صلى الله عليه وآله عن عائدية

الارض، فقيل له انها تعود الى يتيمي فلان، فضُمن إرضاؤهما، وبني المسجد بطول ستين ذراعا وعرض مثله، بعدها بنيت مساكن النبي ﷺ حوله ملاصقة له، ومساكن آل البيت وبعض الصحابة، وصار المسجد مكان عبادة وتعليم وتشاور، فصلاة الجماعة والجُمع لم تخلُ منه، كما ان حلقات الدرس الديني كانت حافلة بطلبة الاحكام والقراءة! وكذا كان يعقد فيه المؤتمرات والندوات التي تبحث في أمور المسلمين.

قتال من أجل السلم والحرية!

بعد كل تلك الآلام، وبعد كل تلك المعاناة وذلك الاضطهاد، أُذن للنبيﷺ واتباعه بالدفاع عن انفسهم! وسمح لهم بسل السيوف! واشهارها بوجه الطغاة البغاة! الذين لا يرعوون عن التنكيل بهم! وتعذيبهم بكل الوسائل والطرق! هكذا اذن صار المسلمون اصحاب قوة وبأس، هدفهم الوحيد ضمان الدفاع عن المسلمين، وضمان حرية العقيدة لهم وحرية الدعوة، دون أي تعد على أحد من أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى من اهل الكتاب.. فقد وفر الدستور الاسلامي الذي جاء به النبيﷺ مساحة مهمة من الحرية بذلك! حيث عمد الى ايجاد معاهدة بين المسلمين واليهود في تنظيم التعامل وتوزيع المهام والتعاون في بناء الدولة التي تعود مركزية الحكم فيها الى النبيﷺ، مع ضمان تمتع اليهود بحرية التعبد وفق ديانتهم التي يشاؤون! وعدم اللجوء الى التعاون مع المشركين في مكة والايقاع بالمسلمين ودولتهم الفتية..

وقد كان إذْنُ الرحمن بذلك في الآية المباركة: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ**

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[١]، إذ كان قبل نزولها لم يُسمح لهم بذلك، وكأنه تعالى يريد أن يبين لنا أن الأصالة في الدعوة الى الاسلام هي الدعوة السلمية، أما الجنوح الى الحرب والقتال فقد كان خيارا اضطراريا، فأنت أمام عدو لا يتورع عن القتل والظلم والاضطهاد! أمام شرذمة من الأوباش الجلاف الذين لا يرعون حرمة ولا رحمة! ماذا عساك ان تفعل امام كل ذلك؟! هل تتركهم يبيدونك ويقضون على مشروعك الرسالي؟! أم انك ستجنح الى رفع السيف لا لأجل السيف نفسه! وانما لأجل دفع من يحمله الى أن يغمده ويتركك تعيش بحرية وسلام! هكذا كان يريد الحق تعالى ورسوله الامين، وهذه هي مقصديته.. فلولا السيف ما بقي من المسلمين من أحد! ولم نجد للإسلام من باقية!

---

(١) الحج: ٣٩.

المؤاخاة بين المهاجرين والانصار

رب أخ لك لم تلده أمك! ورب أخ من أبويك كان لك أعتى عدو! مفارقة واقعية، لها مصاديق كثيرة! هذا ما حدث بالضبط في دنيا الاسلام في بدايات دعوته! فقمة الاخوة الحقيقية وجدناها قد حدثت بين أتباع النبي صلى الله عليه وآله الخلص لدينهم ومبادئهم! فمن يتصور في غير الاسلام يمكن ان تحصل أخوة بين عبد أسود مملوك وسيد حرّ مالك! أخوة قامت على المساواة بين العنصرين، والتكافل والتشارك في المأكل وما يلزم من احتياج! كما انها قامت على اتباع الحق ونصرة المستضعفين! تشكلت في رحاب الاسلام ونبيه الكريم صلى الله عليه وآله، الذي استطاع ان يذيب كل تلك الاعتبارات الواهية.. والفوارق التي اصطُنعت بادعاءات خاوية!

لا شك ان المهاجرين الذين ترك الغالبية منهم اموالهم وبيوتهم سيجدون في المدينة أنفسهم بلا مأوى وبلا مال ان تُركوا وحالهم! لكن سياسة النبي صلى الله عليه وآله الرشيدة وحنكته الاجتماعية جعلته يدعو المهاجرين والانصار الى المؤاخاة فيما بينهم، فكل واحد من الانصار يجد في نفسه القدرة والسعة في ان يكفل شخصا من المهاجرين او اكثر فليفعل، وكان لهم الخيار بذلك، ان شاؤوا فعلوا وإلّا فلا، ونجحت تلك الدعوة في

المؤاخاة نجاحا باهرا! حيث قاسم الانصار اخوانهم المهاجرين مساكنهم واموالهم وجميع مؤنهم! بل قاسموهم حتى بملبسهم الذي يرتدون! فكان فعلهم يمثل القمة في التكافل والقمة في التعاون! حتى قيل ان بعضا ممن عنده اكثر من زوجة، قام بتطليقها ليتزوجها مهاجر لا زوجة له ولا عيال! فأي تفانٍ من اجل العقيدة اوجده النبي صلى الله عليه وآله في أتباعه! بهذا العمل ازداد الناس تلاحما، وصار المسلمون كالجسد الواحد ان اشتكى له عضو تداعى له البقية بالنخوة والإيثار والمساعدة!

من جانب آخر نجد ان بعضا من المسلمين المهاجرين لم يرتضوا ان يكونوا عيالا على غيرهم! لذلك التجأوا الى الزراعة في أراضٍ كانت تحت تصرف اشخاص من الانصار، وكان العمل بها مزارعة.. وكان من ابرز هؤلاء الامام علي بن ابي طالب عليه السلام الذي عانى الامرين جراء اجهاد نفسه بالعمل!

ان الهدف من المؤاخاة لم يقتصر على الجانب الانساني فحسب! حيث نجد ونستشف ان هنالك حكمة اراد النبي صلى الله عليه وآله ان يوصلها الى المجتمع الاسلامي حاضرا ومستقبلا! وهي ان المؤاخاة اُعتمدت لكي تبين لنا مكانة البعض في الاسلام! ومدى أهميته فيه! فقد كانت هذه المؤاخاة بين الشخص ونظيره، أو ما يكافئه أو يقربه مكانة وفضلا! كما كان ملاحظا من مؤاخاة ما قبل الهجرة، حيث آخى النبي صلى الله عليه وآله بين ابي بكر وعمر! وبين طلحة والزبير! وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف!

وبين نفسه صلى الله عليه وآله وعلي بن ابي طالب عليه السلام!

وقد كرر الحبيب صلى الله عليه وآله مؤاخاته مع علي عليه السلام في المؤاخاة التي حصلت في المدينة المنورة! إذ يذكر المؤرخون وأصحاب السير بأنه عندما حصلت المؤاخاة بقي علي بن ابي طالب عليه السلام دون ان يؤاخي معه أحدا! مما جعله يخرج من المسجد حزينا منكسرا! حتى خرج النبي صلى الله عليه وآله يبحث عنه، الى ان وجده نائما على التراب! فناداه: «**قم يا أبا تراب**»! فأخبره بأنه أخوه ووزيره! فهذا التكرار من النبي صلى الله عليه وآله مع شخص علي عليه السلام لم يكن بالشيء الاعتباطي أبدا! وكأنه صلى الله عليه وآله يريد ان يربي الاصحاب والاتباع على ملازمة علي والاذعان له! وتهيئة النفوس لتقبل إمامته بعده صلى الله عليه وآله، فهو يعلم ان هناك من سيكون لديه تحفظات على علي عليه السلام لأنه سيقوم بقتل صناديد الكفر من أقربائهم! كما أنه عليه السلام لا يقبل ان يهادن أو يجامل أيا كان على حساب الدين وقيمه السامية.

لقد قلنا ان المؤاخاة في المدينة لم تكن الاولى، إذ كان قبلها قد حدثت مؤاخاة في مكة بين المسلمين قبل الهجرة، وذلك لما عاناه البعض منهم نتيجة الاضطهاد والتشريد من فقد للمال وانعدام لأبسط مقومات العيش! فكانت تلك نوعا من الضمان والتكاتف الاجتماعي في مواجهة تلك الظروف الصعبة! كما ان مؤاخاة المدينة بين المهاجرين والانصار لم تكن بوقت واحد، وانما كانت كلما أتى مهاجر جديد أُخِيَ بينه وبين أنصاري آخر! فالمهاجرون حين المؤاخاة كانوا خمسة وأربعين شخصا،

والأنصار كانوا أكثر بكثير منهم، وهكذا استمرت المؤاخاة الى مجيء بعض من الصحابة بعد معركة احد من الحبشة و الى ما بعدها..

ميلاد أمة!

بالأمس كانوا في قبائل متشرذمين! واليوم أصبحوا في جسد واحد متماسكين! كانت الشهوة والأهواء تُسيّرهم! واليوم شرع الله يحكمهم! فصاروا خير امة اخرجت للناس! يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.. فهذه الجزيرة تشهد ميلاد أمة مذ أن هاجر النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة! فقد أوجد شعبا مبتنياً على الاخوة والتكافل والتماسك، يخضع لحاكمية السماء، يقوده نبي اصطفاه ربه من انفسهم، معروف بالخُلق والأمانة! فلله درها من أمة تكون في عين الله!

لقد كانت القبيلة والعشيرة هي الجهة الاساسية التي يُستند اليها من قبل الفرد والاسرة في المجتمع! فلم يكن في الجزيرة العربية اي نظام سياسي يحكم الناس ويجعلهم في غنًى عن القبيلة! فمن الطبيعي في بيئة تعج بقيم الغزو وشيوع الحروب، وسيادة القوة والاحتكام الى السيف، ستكون فيه القبيلة هي الملاذ الاوحد عند الناس! كل هذه العوامل ساعدت على تنامي دورها وتعزيز مكانتها في المجتمع العربي قبل مجيء النور الالهي المبين! لكن ما ان أتى الاسلام حتى وجدنا ان الناس الذين اعتنقوه قد ذابوا فيه! وخلعوا عنهم كل براثن الجاهلية العمياء! التي لا ترى غير الانانية والشهوة والهوى! فانتهت العصبية والنعرات

العنصرية، وانصهر الجميع في بوتقة الاسلام بقيادة النبيﷺ، فكانت امة من الناس، مهاجرين وانصار، لا فرق بين احد وآخر، ولا فضل إلّا بالتقوى والعمل! فالكل أمام شريعة السماء متساوون، لهم ما لغيرهم من الحقوق، وعليهم ما على غيرهم من الواجبات..

هكذا اذن صار المجتمع الاسلامي في المدينة، مجتمعا متفانيا في الاحساس بالآخرين، واضحى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا! اذا اشتكى منه جزء، تداعت له البقية بالسهر والحمى! فلم تعد وهذا الحال للقبلية او العشائرية اي قيمة وضرورة، فالإسلام بأبوته العظيمة وقوانينه الرائعة استوعب الجميع! حتى الذي لا يدين بالإسلام، فحقوقه مكفولة! وكرامته مصونة! كل ذلك بفضل سماوية اسلامنا العظيم.. فلله المنّة والحمد..

الوثيقة الحضارية الكبرى!

يفتخر الانكليز بوثيقة العهد الاعظم التي كانت قد صدرت لوائحها في المملكة المتحدة العظمى (بريطانيا) إبان القرن الثالث عشر من الميلاد! وقد اعتبرت عالميا الوثيقة الاولى التي صدرت وأعطت الحقوق للرعية بحرية الاديان والحقوق الفردية وسوى ذلك! وعجبا كيف تجاهلت الامم المتحدة الوثيقة النبوية التي صدرت في المدينة! التي أعطت الحق الكامل لأصحاب الديانات لاسيما اليهود منهم بحرية التعبد وفق أديانهم! وحريتهم في إقامة الشعائر الخاصة بهم! وإمضاء تبنيهم لكل عادة وتقليد يسيرون به! لكن الأعجب من ذلك هو التجاهل الحاصل من الكتّاب والمفكرين الذين يعشون في المنطقة العربية الاسلامية، الذين نجد في كتابات الغالبية منهم وكأن لم يقرأ ولم يسمع عن تلك الوثيقة الحضارية! التي لها السبق في ارساء الحريات وإعطاء الحقوق للمواطنين في معتقداتهم وتقاليدهم وعباداتهم التي يرغبون بها! فهل يُعد ذلك الا نكرانا لتاريخ امة وتراث ديانة مهمشة، أم إنه عقدة شعور بالنقص والتبعية للآخر من ذوي الجنس الأبيض!

ان كتب السيرة والتاريخ اتفقت على ان النبي صلى الله عليه وآله بعد استقراره

في المدينة المطهرة، عمد الى اصدار وثيقة عهد بين الناس الساكنين في تلك البلدة، وهذا الشيء لا يعني بحال من الاحوال تهميشا للقرآن واقصاء له كما قد يفهم من البعض! لأن القرآن لم ينزل كثير منه بعد! نعم فهو وإن كان يمثل دستور الدولة الفتية الجديدة، إلا أن وثيقة العقد الاجتماعي لا تتعارض مع حيثياته السامية، بل ان القرآن نفسه قد أمر بالأخذ من الرسول صلى الله عليه وآله، ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[1]، فحالها ههنا كحال أي معاهدة او قانون يُسن من قبل حكومة ما او من قبل برلمان دولة ما؛ اذ ان هذه المعاهدات أو القوانين تتحرك ضمن المساحة التي يرتضيها دستور يُحتكم إليه، وبذلك فإن القرآن دستور عام للإسلام، جعل للنبي صلى الله عليه وآله حق سن القوانين وعقد الاتفاقيات التي لا تخرج عن حاكمية القرآن نفسه وأطره المحددة!

العهد مع اليهود

عهد مع من لا عهد لهم! واتفاق مع من لا أمان منهم! وتفاوض مع قتلة الانبياء! الذين أذاقوهم المُرّ والحديد! منّ الله عليهم بشتى المنن، وأنزل عليهم أحسن النعم، وأراهم من المعجزات ما تبهر العقول! حتى أماتهم ثم أحياهم مرة أخرى! كل ذلك ليستجلبهم الى جادة الطريق، ويبعدهم عن عذاب الحريق! لكنهم لم يرعووا! ولم يهتدوا! فعادوا الى

(١) الحشر: ٧.

غيهم متمردين، ينشرون الفساد أينما حلّوا! مع كل ذلك قَبِلَ النبيﷺ بهم مواطنين في رعية الدولة الاسلامية الفتية! رغم خطرهم الأكيد!

أرادﷺ ان يثبت للناس ان الاسلام دين لا يلغي الآخرين، مهما كانت مآربهم ومشاربهم، المهم عندهﷺ هو التعايش المشترك بسلام وتعاون! وهذا أساس عظيم ليت المسلمين عملوا به وركزوا عليه! فيا ليتك سيدي يا رسول الله تأتي إلى بلدان أمتك.. وترى المدعين من أتباعك ماذا يفعلون؟! وكيف بالقتل والتفجير على الناس يحكمون؟! بالرغم من أنهم كلهم مسلمون! فعجل بقربك سيدي فرجا.. عاجلا يكون!!

لقد ذهب رسول اللهﷺ الى مساكن اليهود في المدينة، وحدث له لقاء معهم، فسألوه عن ماهية ما جاء به، وما يريده من الناس.. فأجابهم شهادة ان لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأني الذي تجدونني مكتوبا في التوراة، والذي أخبركم به علماؤكم أني ذلك الذي يخرجوه من مكة، وان مهجره في هذه المدينة، كما أخبرهمﷺ ان عالماً منهم قد جاءهم من الشام ويدعى ابن حوّاش وانه اخبرهم: تركت الخمر والخمير وجئت الى البؤس والتمور لنبيّ يبعث في هذه الحرّة مخرجه بمكّة ومهاجره هنا، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، يركب الحمار، ويلبس الشمّلة، ويجتزي بالكسرة، بين عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، ويضع سيفه على عاتقه لا يبالي من لاقى، وهو الضحوك القتّال،

يبلغ سلطانه، فيقطع الخفّ والحافر.. وبعد ان رفض اليهود الدخول في الاسلام والايمان به صار الاتفاق بين الجانبين على كتابة معاهدة تنظم العلاقة بينهما، ويلتزم كل طرف بالبنود التي أُبرمت من قبل الطرفين فكتب الحبيب صلى الله عليه وآله كتاباً ينص على ألّا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية لا بليل ولا بنهار، الله بذلك عليهم شهيد، فان فعلوا فرسول الله في حلّ من دمائهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، وكتب لكلّ قبيلة منهم كتاباً على حدة وكان الذي تولّى أمر بني النضير حيّ بن أخطب فلمّا رجع الى منزله قال له: إخوته: جديّ بن أخطب وأبو ياسر ابن أخطب: ما عندك؟ قال: هو الذي نجده في التوراة والذي بشّرنا به علماؤنا، ولا ازال له عدوّاً لأنّ النبوّة خرجت من ولد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل! ولا نكون تبعاً لولد اسماعيل أبداً، وكان الذي تولّى أمر قريضة كعب ابن أسد، والذي تولّى أمر بني قينقاع مخيريق وكان أكثرهم مالاً وحدائق فقال لقومه: تعلمون أنّه النبيّ المبعوث؟ فهلمّوا نؤمن به.. فلم يجبه أحد الى ذلك»[1].

(١) ينظر: اكمال الدّين ١: ١٩٨ .

أساس الدولة في الإسلام

عمل النبي صلى الله عليه وآله وهو في المدينة المنورة على تشكيل حكومة تُعنى بأمور الدين والدنيا، فخصص لذلك كثيرا من الوقت في سبيل تنظيم أمور الأمة والرعية، فالإسلام شريعة ومنهج للحياة معا، وبهذا الشيء خالف اسلامنا العظيم باقي الديانات السائدة كالنصرانية واليهودية لاحقا التي انتهت الى عزل الدين عن الدولة! وأن الدين لا يلتقي بحال من الاحوال والسياسة! فكانت مرجعياتهم آنذاك منشغلة بالدين فقط! أما الامور الدنيوية فلا علاقة لهم بها من قريب او بعيد! وكانت آنذاك كلمة شائعة تختزل مذهبهم المتقوقع على الدين فقط، وهي: (لله ما في السماء، وما في الارض لقيصر)! حتى بالغوا في تنكرهم الى الدنيا وما فيها بالوصول الى أن حرّم الرهبان والقساوسة الزواج على انفسهم!

فهذه الديانات ذات طابع خاص، تهتم بالجوانب الاخلاقية المثبتة على شكل وصايا! ولم يكن رجل الدين عندهم ذا سلوك مشتمل على امر حياتي! بخلاف الاسلام الذي استوعب فيه نبيه صلى الله عليه وآله فهما متكاملا للدين والحياة، وأن هذا الدين يمثل نسيجا متضافرا من الاخلاق والعلاقات والاحكام والآداب.. فأخلاقه خاصة وعامة، يهتم بالفرد

والأمة معا، ووضع أسسا تنظم العلاقات بين الرعية وحكامها، وكيفية ادارة شؤون الدولة، وكيفية تنظيم أمور العائلة، وشؤون الزواج وما ينجم من مشاكل عنه، وطرق المعالجة، الى الطلاق وما يترتب عليه، وهكذا بقية الجوانب، فالإسلام منظومة حياتية متكاملة جاءت من خالق الكون الذي هو أعرف بالتنظيم والمعالجة والتطوير! فكان رسول الله بحق يدير الدنيا والآخرة سوية دون افتراق! فهو ان صح التعبير كان الباب الاعظم.. والقيصر المعظم في آن واحد!

فالنبي الاكرم صلى الله عليه وآله يعد أول من وضع الاساس الحضاري للمدنية، التي تعدت بأثرها الى من كانوا غير مسلمين! حيث شملت المجتمعات التواقة الى الحرية والديمقراطية والى اليوم! وهذا يدحض التصور الخاطئ عند البعض ممن يرى أن المدنية قد كانت إبان العهدين الأموي والعباسي! وهذه مغالطة فادحة! إذ اننا لا ننفي التمدن الأموي والعباسي! لكننا نقول عنه أنه ما هو إلّا انعكاس ونتيجة للأساس الذي وضعه الحبيب صلى الله عليه وآله، وأنهم لولا الانحرافات التي أحدثوها لكان العالم آنذاك كله حضارة راقية ومتقدمة متشرفة بحاكمية الاسلام! ولرأينا اليوم أن العالم ينعم بالخير والوئام، والازدهار والسلام! ولكان شعار (لا إله إلّا الله محمد رسول الله) يحكم العالم من غربه الى شماله! لكن شياطين الانس أوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا! فكانت طامة كبرى أخّرت آمال الحبيب صلى الله عليه وآله والى الآن في إسعاد البشرية دنيا

وآخرة! فإلى الله المشتكى! لكن سيأتي اليوم الذي تُحقق فيه إرادة الحق تعالى وآمال حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله، يوم أن يُمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ويجعَلهم الله أئمة ويجعلهم الوارثين!

تحويل القِبلة

حبيب يداري الحبيب! وخل لا يرد طلب الخليل! فيستجيب لكل ما يريده حبيبه من تصويب، وما يريد من تعديل، بعد ان أعياه تهكم العدا، وسخرية اتباع الهوى! ممن لا همّ لهم سوى التضليل بالمسلمين، وإثارة الشُبَه بين المؤمنين! فقد أعطى الله سبحانه نبيه الكريم صلى الله عليه وآله ما تمناه من تغيير للقبلة التي يصلون إليها، والتي كان اليهود كذلك يستقبلونها في صلواتهم! فكان المسجد الحرام الوجهة الجديدة التي يستقبلها المسلمون، بعد ان نزلت الآية: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[1].

وقد اتفقت كتب السيرة والتأريخ على ان النبي صلى الله عليه وآله بقي بعد هجرته يصلي مستقبلا بيت المقدس، وبعد مضي سبعة اشهر تقريبا تطاول بعض من اليهود وقالوا له: انت تابع لنا تصلي الى قبلتنا! ونحن اقدم منك صلاة! فتأذى لذلك النبي صلى الله عليه وآله وأحس بالألم! وتمنى لو ان الله سبحانه وتعالى يبدله قبلة غيرها! حتى قيل انه صلى الله عليه وآله قد خرج في جوف الليل وأخذ ينظر الى السماء آملا بأن الله سيأتيه بأمر يغير له القبلة! الى

(١) البقرة: ١٤٤.

ان أصبح الصبح ومر الضحى وقرب الظهر! فخرج الى مسجد بني سالم الذي أقام فيه الجمعة الاولى في المدينة! صلى فيه فريضة الظهر آمّا الناس، وما إن مرت حتى نزلت عليه الآية: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[١].

وعن أبي بصير عن الامام الصادق أو الامام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٢]، فقلت له: الله أمره أن يصلي الى بيت المقدس؟ قال: **نعم، ألا ترى أنّ الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[٣]، قال: إنّ بني عبد الأشهل أتوهم وهم في الصلاة قد صلّوا ركعتين الى بيت المقدّس فقيل لهم: إنّ نبيّكم قد صرف الى الكعبة فتحوّل النساء فكان الرجل والرجال مكان النساء وجعلوا الركعتين الباقيتين الى الكعبة فصلّوا صلاة واحدة الى قبلتين، فلذلك سميّ مسجدهم مسجد القبلتين[٤].

---

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٤٢.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) ينظر: التهذيب للطوسّي ١: ١٤٦ .

بناء الجيش الإسلامي

لاقى المسلمون من الكفار أشد العذاب وأروعه! وذاقوا من سياطهم وحرابهم طعم الألم! وتجرعوا من أيديهم شراب الهوان والتنكيل! حتى تخلص أكثرهم من ذلك بالهجرة الى المدينة حيث مهجر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وهناك حيث سيتم بناء المجتمع الإيماني فإنهم بحاجة أشد ما تكون الى جيش أو قوة تدفع عنهم الشر القريشي القادم! فهم على علم تام بأن طغاة مكة سوف لن يدخروا أي جهد للقضاء عليهم في أسرع وقت ممكن! زيادة على الخطر الذي يهدد كل من يسكن الجزيرة العربية التي يعيش الناس فيها حياة الغاب! حيث الحق مع القوي، والغزو وحب السيطرة على الأموال هي الحاكمة على المجتمع العربي آنذاك!

فهكذا ظروف وغيرها جعلت من النبي صلى الله عليه وآله يجنح الى بناء جيش قوي يستطيع به أولا رد كيد الأعداء والدفاع عن المستضعفين من الأمة الفتية، وثانيا فإن الدين لابد له من قوة ضامنة من عدم الاعتداء عليه من قبل من سيجد فيه تهديدا له، أو أنه سيقف بوجه الدعوة الاسلامية التي تدعو الى توحيد الله في العبادة والربوبية.

إذن أشرع النبي وأتباعه في بناء جيش اسلامي يتسلح بالعقيدة الحقة والمعنويات العالية التي هي أهم ما تكون في العقيدة العسكرية عند الجيوش المعتبرة، ووظيفته في بداية العهد المدني هو الدفاع عن الدولة الإسلامية الفتية المحاطة بالمخاطر من قبل المشركين جنوبا واليهود والمنافقين داخلا وشمالا ومن الأعراب الذين يحيطون بالمدينة من كل جانب!

إلا أن النبي صلى الله عليه وآله كان ينظر بعيدا حيث أن الدعوة ستبدأ بالانطلاق خارج المدينة، وستبدأ الجماعات الظالمة تضايق على المسلمين مشروعهم، ومن ثم ستحارب الاسلام بكل ما عندها من قوة؛ لأنها لا تريد أن يسود العدل والمساواة بين الناس! فذلك يهدد مكاناتهم العنصرية والطبقية المتجبرة والمتسلطة! فكان لابد من حامي عن الإسلام وأهله من قوى الشر والظلام التي تتربص به.

سراياه صلى الله عليه وآله وغزواته

ها هي السيوف بدأت تُسلّ من أغمادها! وها هي الحراب أُشحذت مقاطعها! ليبدأ العهد الجديد، عهد الحساب مع من لم يرع حرمة ولا رحمة، تجاه اُناس عزل لا حول لهم ولا قوة! بعد ان سلبوهم أموالهم وبيوتهم وكل ما يملكون! ماذا عساهم ان يفعلوا تجاه هؤلاء الذين كانوا بالأمس معهم وحوشاً كاسرة، يريدون قتلهم وسلبهم! وهم بعد ذلك ما زالوا على غيهم وعنادهم لإطفاء نور الله بكل الوسائل! فكانت الغزوات والسرايا!

والغزوة تعني عند اهل السير والتاريخ الجيش الذي يخرج بقيادة النبي صلى الله عليه وآله، أما السرية فهي الجيش الذي لا يكون فيه النبي صلى الله عليه وآله، وقد حصل بعد الهجرة المباركة الى المدينة عدد منها، وأولها كانت سرية قد بعث بها النبي صلى الله عليه وآله لملاقاة ابي جهل، وكان حمزة يقود ما يقرب من ثلاثين رجلا كلهم من المهاجرين، أما أبو جهل فكان معه بما يقرب من ثلاث مئة من المشركين! وكادت تحدث بين الجانبين معركة، لولا ان تدخل رجل من جهينة، وكانت له علاقة مع الجانبين، فتدخل بينهما بما حال من الحرب ان تقع.. وكان ذلك بعد سبعة اشهر من الهجرة المباركة.

وبعد ثمانية اشهر عقد صلى الله عليه وآله لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب سرية من ستين مقاتلا لملاحقة ابي سفيان بن حرب، وجهز بعدها سرية بقيادة سعد بن ابي وقاص متكونة من ثمانية اشخاص، ثم غزوة الابواء وبعدها غزوة بواط، ثم غزوة العشيرة، فسرية عبد الله بن جحش الى بطن نخلة بين مكة والطائف! ثم غزوة بدر الاولى، وكل هذه الغزوات والسرايا حصلت قبل معركة بدر الكبرى عام الثاني من الهجرة.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله اذا اراد ان يبعث بسرية فإنه كان كثيرا ما يوصيهم بأمور اخلاقية وانسانية! وأن يكونوا على قدر كبير من الرحمة والرأفة بالأسرى والضعاف من المشركين! ممن أُكرهوا على الحرب! كما نهاهم عن المثلة بالقتلى من الاعداء، ونهاهم عن التخريب والتدمير للأموال والممتلكات التي تعود للكافرين وذويهم! بل أكثر من ذلك أوصاهم بالحفاظ على الشجر والزرع وعدم قطعه إلّا بضرورة! فيا لأخلاقك يا نبي الرحمة والانسانية! و يا لسمو رأفتك بكل شيء! فها هي انسانيتك تفوح بها السير! وها هي انجازاتك تحتجب عنها منجزات الوثائق العالمية ومواثيقها خجلا واستصغارا! فأين هي من تعاليم محمد صلى الله عليه وآله! التي اقرها قبلها بأكثر من اثني عشر قرنا! تلك المواثيق التي أُعتبرت سباقة في التعامل الانساني لقواعد الحرب والمعارك!

بدر الكبرى

لقد وجد المهاجرون أنفسهم في المدينة بأنهم بين أهليهم وذويهم، فهم وإن جاؤوا بلا مؤونة وحال ضعيف إلا أن الأنصار قاسموهم المأكل والملبس والمؤونة؛ لأن المشكين لم يتركوا لهم مجالا يأخذوا شيئا مما يملكون، فأخذها الظالمون ظلما وعدوانا.

وبعد أن صار للمسلمين قوة في المدينة، وبعد التهديدات التي بدأ المشركون يقومون بها، أنزل الله تعالى على نبيه الإذن في قتال هؤلاء، فقال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾[١]، فكان ان حصلت أول معركة بين الجانبين سُميت بمعركة بدر.

ففي السنة الثانية من الهجرة المباركة كلف النبي صلى الله عليه وآله سرية من المسلمين بالاستيلاء على قافلة قريش التي جاءت قادمة من الشام متجهة الى مكة بقيادة ابي سفيان قد اضاقت على القافلة الطريق! وكادت ان تقع بأيدي المسلمين لولا قضاء الله وقدره! وهذه السرية كانت قد سبقت بسرية ابن جحش التي استولت على قافلة قبل هذه! حيث استولى

(١) الحج: ٣٩-٤٠.

المسلمون عليها واسروا بعضا من المشركين! كل ذلك ساهم بتأجيج القرشيين أكثر مما هم عليه من الحقد والكراهية! لذلك جمعوا من جميع القبائل المكية أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل! واتجهوا صوب المدينة لإنقاذ قافلتهم الكبرى التي اودعوا فيها اكثر اموالهم! وكذلك للقضاء على المسلمين في المدينة! وبعد ان فلت ابو سفيان بالقافلة والمال ارسل الى الجيش القرشي يخبرهم انهم قد نجوا وعليهم الرجوع الى مكة! فالقافلة بأمان والخطر قد زال! غير ان البعض من المشركين بقيادة ابي جهل قد اصروا على مواصلة الزحف الى المدينة والقضاء على المسلمين جميعا!!

وفي منطقة بدر كان قد عسكر المسلمون! الى ان وصل جيش المشركين فعسكر الطرفان وكلاهما مواجه للآخر! خاطبهم الحبيب صلى الله عليه وآله وحضهم على الرجوع الى مكة، فهو كان لا يرغب بالحرب، كذلك كان في صف المشركين من لم يرغب بالحرب! وهو عتبة الذي جال بين الطرفين، يدعوهم الى نبذ الحرب! لكن المشركين كأن في آذانهم وقرا! فلم يستمعوا له ويطيعوه! وقد أصر ابو جهل وامثاله على الحرب!

إذن فرضت الحرب بسبب تعنت الطغاة من قريش! أما النبي صلى الله عليه وآله فلم يجد بدا من الحرب بعد اصرار القوم! كما أن الانسحاب سيبدد هيبة المسلمين! وفي الوقت نفسه سيجعل الجميع يطمع في القضاء عليهم! قريش ومن تحرضهم من اعراب الصحراء من جهة، وما يشكله اليهود والمنافقون من خطر داخلي محدق من جهة أخرى! ذلك الطابور الذي

ما إن يجد فرصة سانحة حتى يكشر عن انيابه ويشهر سيفه لاستئصال المسلمين جميعا وبلا استثناء!!

كان عدد جيش المسلمين بعدد أصحاب طالوت! ثلاث مئة وثلاثة عشر شخصا، وكان عدد الإبل سبعين بعيرا، يتعاقبو عليها الاثنان والثلاثة، وأما الخيل فكانت اثنتين! قيل واحدة للمقداد بن الأسود، والثانية للزبير بن العوام، وعندهم من الدروع ستة! والسيوف ثمانية! هذا جيش الاسلام! بقبال جيش يبلغ عديده بما يقرب من ألف مقاتل! معهم من السلاح يفوق ما عند المسلمين عددا ونوعا! فمن الخيل كانت معهم اربعمائة! أما الابل فكانت لبقية المقاتلين! بمعية ستمائة درع يلبسها الصناديد! فالفارق عظيم! والموقف أعظم على المسلمين! فهاهم امام جيش يفوقهم عددا وعدة! لا اخلاق تقيده! ولا قوانين للحرب تحكمه! إلا منطق الانتقام والحقد والكراهية! كما ان المسلمين لم يجربوا قبل ذلك حربا! فبدر هي المعركة الحقيقية الاولى لهم!

كان كثير من المسلمين قد شابه الرعب والخوف عندما شاهد الفارق الكبير بينهم وبين المشركين! لذلك رفعوا أكفهم تضرعا الى الله! يستنجدونه ويدعونه بالنصر والتوفيق! حتى ان النبي صلى الله عليه وآله قد ناجى ربه ودعاه بقوله[1]: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض**» فما زال يهتف ربه مادا يديه حتى سقط رداؤه من

(١) ينظر: مجمع البيان: ٤/ ٣٨٨.

منكبه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، وفي الليل ألقى الله سبحانه وتعالى على المسلمين النعاس فناموا، وأرسل عليهم المطر، وذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[٢].

تقابل الجيشان واستعد الطرفان للقتال! فكانت راية النبي صلى الله عليه وآله بيد علي بن ابي طالب عليه السلام، وقد اوصاه ان لا يبدأ القوم بالحرب، خرج ثلاثة من وجوه المشركين للقتال الانفرادي! ونادوا المسلمين بالبروز للقتال! فخرج لهم ثلاثة من الانصار، فرفضوهم! وطلبوا اكفاءهم من قريش، فأخرج النبي صلى الله عليه وآله لهم عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فهم اهل بيته! حينئذ قال عتبة أكفاء كرام! فتبارز علي عليه السلام مع الوليد بن عتبة، وحمزة مع شيبة عم الوليد، وعبيدة مع عتبة ابو الوليد! قُتل المشركين الثلاثة! وبترت رجل عبيدة! وكان الدور الاكبر لعلي عليه السلام الذي اشترك بمقتل الثلاثة! ثم برز حنظلة بن ابي سفيان بن هند وأخو معاوية! فأرداه الامام صريعا متمرغا بالتراب! فبعده العاص بن سعيد

---

(١) الأنفال: ٩ – ١٠.

(٢) الأنفال: ١١.

بن العاص الذي قتل بسيف الامام ايضا! حتى اشترك الامام بقتلهم جميعا! فلله دره من مجاهد! وقد قالت هند زوج ابي سفيان نظما تنعى به قتلاهم الذين ارداهم علي عليه السلام! حيث قالت:

ما كان لي عن عتبة من صبر
أبي وعمي وشقيق بكري
أخي الذي كان كضوء البدر
بهم كسرت يا علي ظهري[1]

وهكذا كان النصر منذ البدء حليفا للمسلمين! فما برز مشرك للقتال إلا وقُتل! فكثر القتل في قريش حتى خاف بنو مخزوم على زعيمهم ابي جهل، فأحاطوه وألبسوا درعه ولامته عبد الله بن المنذر فقتله الامام عليه السلام ظنا منه انه ابو جهل! ثم ألبسوها لآخر فقتله حمزة! الى أن قُتل لعنه الله شر قتلة! وبذلك فقد اهل الظلم والشرك أكابر قادتهم ووجهائهم! وحصل المسلمون على غنائم كثيرة! فصدق الله وعده بنصره لجنده! وانتهت حلقة مهمة من حلقات الجهاد والثبات في سبيل المبدأ والدين.

عشق القتال عند مشركي العرب!

لولا إصرار قريش على الحرب لما حدث هذا الذي حصل، لكن القوم قد جُبلوا على حب الحروب ورؤية الدماء! وصاروا لا يقدرون على ان يعيشوا بسلام وأمان! حتى قيل ان مشركا لما جاء الى النبي صلى الله عليه وآله

(١) الصحيح من السيرة: ٥/ ٣٠.

وأخذ يدعوه الى الاسلام.. سأل عن الجنة هل فيها حرب! فأجابه النبي صلى الله عليه وآله بالنفي، فقال المشرك لا خير في جنة لا حرب فيها!!

اتصف العرب المشركون بأنهم كانوا شديدي الحرص على الماديات، وكانت نظرتهم الى الاشياء نظرة نفعية مادية، كما انهم اتصفوا بحب الحرية، وعدم رضوخهم لشيء بدون تلك الحرية! فهم لا يريدون التقيد بأنظمة وقيم جديدة لم يعتادوا عليها.

وهذا ابن خلدون يقول عنهم: «إنهم اي العرب المشركين بطبيعة التوحُّش الّذي فيهم اهلُ انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه ... وكان ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافيةٌ للعمران ومناقضة له... فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ اموال الناس حدٌّ ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو مَتاع أو ماعون انتهبوه»[1].

فالنهب والاغارة والقتال هي المستحكمة والسائدة عندهم! حتى بلغ عدد الحروب والوقائع والحوادث التي نشبت فيما بينهم قبل الاسلام بما يقرب من ١٧٠٠ حادثة! فالعربي المشرك عموما كان يعتقد ان الحياة لا خير فيها ان لم تسقَ بالدم! وما لم تغتد سيوفهم بأوصال

(١) مقدّمة ابن خلدون: ص ١٤٩.

الخصام! فكانت نفوسهم تقوم للحرب طربا! وأن معاركهم كانوا يرونها على الجيد قلائد ذهبا!

فهذه حروب العبث بين الأخوة من ربيعة! أجل إنها البسوس التي أكلت من الجانبين قتلا كبيرا! استمر لأربعين سنة! ومثلها داحس والغبراء وغيرهما كثير يحفل بها تاريخ طويل لأمة عانت الضياع والدمار، وتتهيأ لاستقبال منجد يخلصها من الانحطاط والظلام! لينير لها طريقا جديدا يرفعها ان استغلته بوجهه القويم الى أعلى عليين!

أحداث ما بعد بدر

خسارة كبيرة منيت بها قريش! قتل ودمار.. وفوق ذلك انكسار هيبة! واضمحلال سمعة بين العرب! كل ذلك كان بسبب اتباع الدين الجديد! مما جعل منهم أناسا فاقدين صوابهم! وبدأوا يتخبطون خبط عشواء! فقدوا العقل وانحرفوا عن الاتـزان! كل ما يهمهم في هذا الوقت هو الانتقام من النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه! فكل شيء في هذه المرحلة متروك سوى الثأر وردّ الاعتبار القرشي المسلوب عند المسلمين!! لكن في الوقت نفسه كان بعض من المشركين منهزمين مكسورين جراء الخسارة الفادحة ببدر! مع كل ذلك فهم ما زالوا لم يستوعبوا ذلك الدرس البليغ، وتلك الخسارة العظيمة بعد! أما المسلمون وان كانوا على مستوى عال من المعنويات؛ نتيجة النصر الذي حالفهم، والتسديد الالهي الذي أمدهم! إلا أنهم لم يكن في حسابهم بعد ان يبدأوا بحرب أو

قتال! فهم بقيادة النبي صلى الله عليه وآله كانوا على أمل دائم من ان لا يعاود المشركون الى الحرب ثانية، وعسى ان يكونوا قد استوعبوا تلك العبر في بدر الكبرى جيدا!

فعمدت قريش الى صنع مؤامرة تلو الاخرى؛ كيدا بالمسلمين! ومن ذلك ارسلت بعضا من رجالها ليتسللوا الى المدينة! ومن ثم يقوموا باغتيال النبي صلى الله عليه وآله! أو يقوموا بافتعال القلاقل وإثارة الفزع بين الناس! فمثلا دُبرت مكيدة في قتل النبي الاكرم صلى الله عليه وآله! غير ان الله تعالى كان قد اخبر حبيبه بذلك! وكانت قريش قد اسدلت لتلك المهمة عمير بن وهب، الذي كشف الله امره! فجيء به الى النبي صلى الله عليه وآله وتكلم معه، فأخبره بكل تفاصيل المؤامرة، وبعد ان وجد الرجل من النبي صلى الله عليه وآله ما وجد أسلم بالدين الجديد، ثم رجع الى مكة يدعو اهله وخاصته الى الاسلام! بعدها قام المشركون بمحاولة اخرى بقيادة ابي سفيان، مصطحبا معه بما يقرب من مئتي رجل! اذ اغاروا على المدينة ليلا وعلى حين غفلة من الناس! فقتلوا رجلين فقط، وبذلك فشلت هذه المحاولة هي الاخرى! اذ لم يحققوا ما أرادوه! فولوا هاربين! لحقهم الحبيب صلى الله عليه وآله بمجموعة مجاهدة من المسلمين! مما جعل ابو سفيان يأمر جماعته بترك الامتعة الزائدة التي معهم؛ لأنها ثقيلة والمسلمون ربما سيدركونهم وينتقمون! فغنم المسلمون ما تُرك، وسميت هذه الغزوة بـ(السويق).

معركة أحد

التحضير لحرب كبيرة!

عاد ابو سفيان الى مكة خائبا يترقب من يسعفه! جن جنونه من النبي صلى الله عليه وآله واتباعه! ما من مكيدة اُحيكت إلا وفشلت! فكل آماله ذهبت ادراج الريح! حينئذ ولي بوجهه شطر أربابه! مناجيا.. ماالعمل أيتها الالهة العظيمة؟! أسعفيني! أغيثيني! بهذه الكلمات تمتم ابو سفيان! وهكذا كان لسانه يلهج! بأصنام وأحجار صماء بكماء لا تضر ولا تنفع! فلم يجد بدا للقضاء على الاسلام والمسلمين سوى الحرب الشاملة عليهم! فقام بتحفيز الناس على القتال، وأخذ يلهب مشاعرهم بذلك، مذكرهم بقتلاهم الذين صُرعوا على يد المسلمين! وبدأ الجميع يعد العدة للحرب!

ومن جانب آخر كانت المدينة تضم بين أفنيتها واحيائها أخبية لأعداء كانت نيرانهم تغلي تحت الرماد! نار أججها غيض الانتصار الباهر للمسلمين في بدر! اذ كان كلٌّ من اليهود والمنافقين خائفين من تنامي قوة الاسلام! ويخشون ان تصبح له السيادة على الجزيرة العربية! مما يؤدي الى ضياع مصالحهم وتبدد احلامهم! فهم على أمل

ان يستأصل الكافرون شوكة المسلمين وقوتهم! فيكونوا بعد ذلك لقمة سهلة بأيديهم! لذلك عمدوا الى خلخلة استقرار المدينة، وخلق اجواء من القلق والريبة عند الناس تجاه حكومة الاسلام، وبالتالي تشجيع القرشيين على الهجوم صوب المدينة! حتى وصل الأمر عند اليهود والمنافقين الى الجهر بما يضمرون!

منع النبي صلى الله عليه وآله اتباعه من التصادم مع الجبهة الداخلية المتمثلة باليهود والمنافقين، وحثهم على الهدوء والسكينة حيالهم! مما جعلهم يظنون ان ذلك ضعف من المسلمين! فزادوا من طغيانهم وغيهم! مما اضطر المسلمون اخيرا الى تصفية رؤوس تلك الشرذمة بإجازة النبي صلى الله عليه وآله؛ ليؤمّنوا الجبهة الداخلية، استعدادا لمواجهة الجبهة الخارجية المتمثلة بقريش ومن معها من الكافرين وأعداء الدين.

وبذلك نجد ان كلا من الطرفين: القريشي والاسلامي بدأ يتهيأ للحرب! قريش بقيادة ابي سفيان تريد الهجوم والثأر وتعويض الخسارة التي منيت بها في بدر! والمسلمون تهيؤوا للدفاع عن مدينتهم وأنفسهم، فعملوا على تصفية الداخل الذي كان يمكن ان يكون سكينا يطعنهم في الظهر وهم في قبال عدو الخارج!

أحد اختبار عظيم!

ان ما تحقق للمسلمين من انتصارات وغنائم في بدر وما بعدها، جعل المسلمين في طمأنينة ومعنويات عالية! لكن النبي صلى الله عليه وآله مع كل ذلك لم يطمئن الى ما هو آت! نعم هو مطمئن تماما ان النصر في النهاية سيكون حليفا للإسلام! إلا أنه في الوقت نفسه يترقب ما سيجابه من عقبات ومصاعب! وما سوف يفقده من أحبة ومجاهدين! فالعلم التفصيلي بحوادث القادم من الايام قد يكون معلوما له وقد لا يكون؛ لحكمة يعلمها وحده تعالى! إضافة الى أن الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب! وهو ما يعرف عند الإمامية بالبداء.

علم النبي صلى الله عليه وآله بالتحرك القرشي الذي جمع العدة والعدد للقتال، فكان بمكة من يخفي اسلامه ويظهر الكفر والعداء للإسلام، قد اوصل الى النبي صلى الله عليه وآله خبر ما عزمت عليه قريش من طلب الثأر والانتقام من المسلمين!

لم يخبر النبي صلى الله عليه وآله المسلمين جميعا بما عزمت قريش عليه، إذ اخبر بعضا من ثقاته المقربين، للتفكير بهدوء وروية في معالجة الموقف القادم! فيما بعد أخبرهم النبي بما وصله من اخبار، وبدأ هو والمسلمون بإعداد العدة والتحشيد لمواجهة العدو الغاشم! استمر المسلمون في الاستعداد.. وقريش بدت تقترب من المدينة! بعث النبي صلى الله عليه وآله من

يستطيع ان يأتي له بأخبار العدو وجيشه! وفعلا استطاع رجل ان يتسلل الى وسط العدو دون ان يشعروا به! حتى عرف كل شيء عنهم، ثم خرج منهم ليلا وأتى الى النبي صلى الله عليه وآله وأخبره بكل تفاصيل الجيش المعادي وحيثياته!

علم النبي صلى الله عليه وآله بأن العدو يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل! فيهم الخيالة الفرسان بأكثر من مئتين! والدارعون بما يقرب من سبعمائة دارع! مع مئة رامٍ بارع! وأكثر من ألفين من الابل! إضافة الى القيان العازفة وغلمان الخمر الساقية! بعدها استشار النبي صلى الله عليه وآله اصحابه في انهم -اي المسلمين- هل يتحصنون في المدينة او انهم يخرجون لملاقاة الكافرين، وهو لم يكن بحاجة الى اشارتهم بقدر ما كان ذلك منه لتطييب قلوبهم واشعارهم بأنهم ذوو اهمية له وللإسلام! فقرر صلى الله عليه وآله ان يخرجوا عن المدينة لتجنيبها الحرب والخراب الذي يترتب عن تصادم الجيشين! ناهيك عن الخطر المحدَق من اليهود والمنافقين فيما لو كانت المواجهة مع الكفار في المدينة! فهم على تواصل مع مشركي قريش.

وصل النبي صلى الله عليه وآله بعد المسير بجيشه الى جبل أحد، حيث ستكون أرض المعركة هي، فعسكر المسلمون على سفح هذا الجبل، المدينة أمامهم والجبل بظهرهم، وكان بجانبهم الايسر جبل فيه فتحة ممكن ان يأتيهم منها الكفار فيُحصر المسلمون من الجانبين! لذلك جعل عليها النبي صلى الله عليه وآله خمسين مقاتلا من الرماة ليحموا ظهر جيش الاسلام!

وكان هؤلاء بقيادة عبد الله بن جبير، وقد شدد الرسول عليهم بعدم ترك موضعهم على كل حال! قدم المشركون يقودهم رأس الكفر ابو سفيان! حيث عسكروا قبال جيش المسلمين وباستدبار المدينة.. نهى النبي صلى الله عليه وآله اتباعه بابتداء المشركين بالحرب الى ان يأمرهم، وقد رتب صلى الله عليه وآله اتباعه البالغ عديدهم سبع مئة رجل ترتيبا جيدا، وبدا الجيشان متقابلين وجها لوجه!

المبارزة الفردية

صمت خيم على الفريقين! وهدوء أصخب أسماع كل من حضر! حتى خرج فارس ملثم انفرج جيش الكفر له! خارقا ذلك الصمت الرهيب! شاهرا سيفه حتى وقف بين الطرفين، فأماط اللثام عن وجهه، وإذا بها هند زوج ابي سفيان وأم معاوية! نعم انها خرجت لتلهب مشاعر الكافرين وتشد من عزيمتهم ضد المسلمين! محرضة لهم بأبيات قالت راجزة فيها:

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
مشي القطا البوارق
المسك في المفارق
والدر في المخانق
إن تقبلوا نعانق

أو تــــدبـــــروا نـــفـــارق

فـــــــــراق غـــــير وامـــــق

بدأ البراز الفردي بين الجانبين، وفيه أبلى علي عليه السلام بلاء أذهل الجميع! فما إن تقدم من المشركين مقدام إلا وكان له الامام نائبا للموت! موكولا بانتزاع روحه من جسده! معجلا به الى جهنم وبئس المصير! وكان حمزة عم النبي صلى الله عليه وآله في هذه الحرب كعلي عليه السلام! إذ انه أبلى بلاء حسنا، وأكثر القتل في صفوف المشركين! فما ظهر لمبارزته مشرك إلا وأرداه صريعا!

القتال الشامل!

انتهى القتال الفردي، وانتهت معه حلقة من الانكسار القرشي، فأغلب من خرج لعلي وحمزة وغيرهما رحّل بروحه الى السماء! وأُبقي بجسده تذكيرا لأهل الكفر! موقف لا يحتمل! وعار على جبين المعاندين! عندئذ لم يجدوا بذلك نفعا، فمالوا الى القتال الشامل، ينظرون الى كثرتهم عدة وعددا! وقلة المسلمين بذلك، فالتحم الجيشان في حرب شاملة، وبدأت الاحداث تسير في صالح المسلمين! وما إن حمل أحد من المشركين لواءهم إلا وقتل! وهب المسلمون عليهم هبة رجل واحد، انكسر الكفر وتقهقر! وبدت ملامح النصر مستبشرة! حتى انكشف الكفر مهزوما متناثرا شرقا وغربا! وسقط لواؤهم ممرغا بتراب الهزيمة! ودخل المسلمون الى معسكر العِدا يغنمون ما ترك الكافرون! عندئذ بدأ بعض الرماة الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله في حماية ظهورهم بترك

اماكنهم واللحاق بإخوانهم المسلمين! ظنا منهم ان المعركة قد حُسمت نهائيا لصالح الاسلام! وهذا الفعل دفع بالأكثرية من الباقين الى فعل الشيء نفسه! وما بقَ منهم سوى ثمانية يقودهم عبد الله بن جبير! تكلم معهم الرجل، وذكّرهم بأمر النبي صلى الله عليه وآله، لكن دون جدوى، وفي تلك الحال نظر خالد بن الوليد من بعيد الى موقع الرماة على الجبل فوجد ان غالبية من كانوا فيه قد نزلوا! فاستغل تلك الفرصة التي لا تعوض! أسرع نحو تلك الفتحة التي ستجعله ينقض على المسلمين من الخلف وهم لا يشعرون، وبجمع الغنائم مشغولون! فكم من مرة أراد خالد اختراق تلك الفتحة لكن دون جدوى! أما الآن وقد ترك معظم الرماة موقعهم فهي سهلة المرور! تصدى من بقي منهم لخالد ومجموعته، أخيرا استطاع هو وجماعته ان يمروا بعد ان قتلوا الرماة الثمانية الذين قاتلوا ببسالة واقدام!

المحنة العظيمة!

ماذا عساهم ان يفعلوا؟! افراد معدودون في قبال مئات من فرسان الكافرين! دافعوا بكل إقدام واستبسال! وأبلوا بلاء الشجعان والابطال! دفاع مستميت ممن بقي على الجبل يحمي الثغرة التي عينها النبي صلى الله عليه وآله، لكن قلة العدد وتواضع العدة اختصرت القتال لصالح ابن الوليد، لقد كان عبد الله بن جبير والذين ثبتوا معه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه! قاتلوا حتى أُثخنوا جراحات بالغة! ولم يتراجعوا

حتى استشهدوا ثمانيتهم! وأبقوا على الاجساد عند العهد مخضبة الدماء! وراحت أرواحهم تصعد سلم الارتقاء! لتشهد لهم بالكرامة الباقية! أرواح فارقت أجسادها وهي خجلة من نبيها صلى الله عليه وآله! فهي لم تستطع أن ترد خرق الكافرين المعتدين!

شاهد أهل الشرك التفاف خالد بخيالته من خلف المسلمين! ورأوا ما فعل بمن بقي من حماة الثغر منهم! فجعلهم ذلك الفعل يتشجعون! ويسلون سيوفهم الى القتال مجددا عائدين! فصار المسلمون اللاهون بجمع الغنائم بين جبهتين! وصار الكفار يحصدون بالمسلمين قتلا كبيرا! فهرب أكثر المقاتلين! وتُرك النبي صلى الله عليه وآله ومعه علي عليه السلام وبعض الصحابة المخلصين! وقد أحاطوا برسول الله صلى الله عليه وآله جلادا صامدين! حتى اُثخنوا بالجراح! منهم مصعب بن عمير الذي قتل وسقط اللواء منه! فدفعه النبي صلى الله عليه وآله الى علي عليه السلام، واستمات الكفار لقتل النبي صلى الله عليه وآله، فهم وجدوا بهذه المعركة فرصة لا تعوض! لأن من بقي من جيش المسلمين قليلون لا يقوون على رد جيش الشرك في النهاية! غير أن الامام علياً عليه السلام ومعه ابو دجانة ومن معهم أبلوا بلاء عظيما في مقارعة المشركين وصدهم! فثبات هذه الفئة المؤمنة بقيادة علي عليه السلام وتوكلها على الله قد حال بين المشركين والوصول الى مبتغاهم بقتل النبي صلى الله عليه وآله! إلا أنه لم يمنع من أيذائه صلى الله عليه وآله! فقد اُصيب الحبيب صلى الله عليه وآله ببعض الجروح! حتى اُغمي عليه! فما أصعب الموقف على النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه! وأي معاناة قد ألمت بوجده صلى الله عليه وآله! عصته

جماعة! وأخرى هربت لتنجو بنفسها! ومجموعة لها مآرب أخرى! ساعد الله قلبك يا رسول الله! وما إن أفاق حتى توجه المشركون بكتيبة نحو النبي ﷺ لقتله! الى ان اقترب منه شقي فرماه بحجر كسر به انفه! واُصيبت كذلك جبهته وشفته! فسال الدم من الوجه الكريم! وأخذ يمسح ذاك الدم من وجهه ويقول: **كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟!** إن كفار قريش بإدمائهم الحبيب ﷺ قد نقشوا على الحجر تاريخ هزائمهم! وحفروا في الصخور قبورهم! نعم إن دم جرح النبي ﷺ هو من صاغ عنوان النصر! وفضح تلك الشرذمة الظالمة التي لم تتورع عن مناجزة الحق وأهله! كما انه قد فضح النفاق وأهله ممن تركوا النبي ﷺ وبعض الاصحاب بقبال جيش كامل!

وما زال القوم يريدون ان ينالوا من النبي ﷺ! لكن عليا عليه السلام كان لهم دائما بالمرصاد! حتى قتل كثيرا من أبطالهم! فنزل جبرئيل وقال للنبي ﷺ: «**يا محمد ان هذه المواساة قد عجبت منها الملائكة**»! فقال: «**وما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه**»! فقال جبرئيل: «**وأنا منكما**»! وسُمع مناد لا يُرى ينادي: **لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي**، فسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: **هذا جبرئيل**[1].

ومما يجدر بنا ذكره ان الامام عليا عليه السلام لم يكن بأشجع من النبي ﷺ

---

(١) رواه المحب الطبري في الرياض النضرة: ٢/ ١٧٢. انظر فضائل الخمسة في الصحاح الستة: ١/ ٣٤٣.

فقد كان كثيراً مايقول: «**اذا حمي الوطيس لذنا برسول الله**».

أما أمر الرسول صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في احد (أكفني هؤلاء وهؤلاء..) لا يعني اكثر من كون الامام عليه السلام يد الرسول التي بها يبطش وسيفه البتار الذي يمزق به اعداء الله ورسوله والمؤمنين.

حمزة وشهادته!

بطل مقدام تخشى نزاله الابطال! وفارس همام تهابه الفرسان! لا يخاف أعداءه مهما كثروا! ولا ينثني عنهم مهما صعبوا! في الحروب كانت نزهته! ومن السبع يحب ان تكون طريدته! حتى استحق بجدارة لقب صياد الاسود! دخل الاسلام فأعز الله به الدين والمسلمين! وأرعب به أهل الكفر من المعتدين! لعب سيفه برقاب الطغاة، حتى صار اسمه يطير منه البغاة! ذلك حمزة بن عبد المطلب! الذي ملأ بصيته جزيرة العرب! ببطولاته النادرة، وصولاته الباهرة، تجاه الكافرين!

لقد كان هم قريش هو الثأر لقتلاها يوم بدر، وعلى رأسهم كانت هند وزوجها ابو سفيان! لأن أبا هند وعمها وأخاها قتلهم المسلمون! وتحديدا هي تريد الثأر من النبي صلى الله عليه وآله أو علي عليه السلام أو حمزة بن عبد المطلب عليه السلام! وكانت قد اختارت غلاما حبشيا يدعى وحشي صاحب مهارة في الرماية، يستطيع ان يغتال خلسة أحد الثلاثة التي تريد هي وزوجها! يقال ان وحشيا اعتذر لها عن اغتيال النبي صلى الله عليه وآله، معللا ذلك

بإحاطة النبي صلى الله عليه وآله من قبل اصحابه، أما علي عليه السلام فقد اعتذر وحشي عن اغتياله؛ لانه كان على حذر دائم! بل انه على مستوى عال من الحذر! أما حمزة فقد أكد بأنه يطمع في ان يصيبه! وقيل انه كمن له اثناء المعركة خلف صخرة، وكان حمزة كما قال عنه وحشي انه يهد الناس هدا! وفيما كان حمزة مشغولاً في حصد الكافرين ضربه وحشي من مسافة بحربة وقيل برمح فأسقطه شهيدا في سبيل الاسلام وإعلاء كلمته! وبعدها جاء وحشي بهند ليريها مصرع حمزة، جاءت ملهوفة مسرعة! يدفعها الحقد الدفين! الى ان وصلت الى الجسد الطاهر، فبقرت بطنه! وأخذت كبده! وقطعته قطعا! ووضعت منها في فمها تمضغها وتلوكها! ثم وصل بعدها العدو الاكبر للإسلام ونبيه أبو سفيان! فلم يكتف بما فعلته هند، اذ قام بطعن الشهيد برمحه وهو يقول: «ذق عقق! يوم بيوم بدر»!

هكذا انتهت حياة بطل فذ من ابطال الاسلام! وهكذا ختمت سيرته شهيدا مغدورا! راح وترك خلفه بصمات وآثاراً سيبقى يلهج بذكرها المؤمنون الى ما ستبقى الايام والليالي! انتهت حياة عزيز على النبي صلى الله عليه وآله، لا لأنه عمه! بل لأنه كان أسدا من أسود الله التي تذبّ عن حمى الدين والمسلمين! وبفقده ثلم الاسلام -والله- ثلمة كبرى! كما كانت وقعة مؤلمة أدمت قلب الحبيب صلى الله عليه وآله! فحزن عليه حزنا عظيما! كيف لا وهو البطل المقدام الذي كان وجوده يرهب المشركين، ويرفع من عزيمة المسلمين!

آثار أُحُدْ!

حرب انتهت بإغماد سيوفها، وزلزال سكن بصمت الصهيل من خيلها، وهجوع مثار النقع فيها.. ولكن لم تنته آثارها! فدوي صداها ما زال يرن في آذان النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين جميعا! انتهى الألم المرحلي.. ولم ينته الالم المعنوي! فوجوه المؤمنين ما زالت شاحبة، وعيونهم تحكي ألف قصة وقصة لأحداث ومواقف تراجيدية! فقدوا فيها الكثير! فقدوا أبطالا كالأسد حمزة عم النبي صلى الله عليه وآله! فقدوا هيبة كانت تطغى على المنافقين الكاذبين واليهود الغادرين! فقدوا مكانة وسيادة ما جعل العرب المشركين ومن شاكلهم يشمتون بهم ويستهزئون!

لابد من تحرك جديد، ولابد من عمل ما، يُرجع للمسلمين هيبتهم! هذا ما كان يشغل بال النبي صلى الله عليه وآله، وهذا ما كان يدور في خلده! لأن الانكسار الذي مني به المسلمون في أحد بالتأكيد سيجعل الجبهة الداخلية تتجرأ أكثر من ذي قبل في الغيلة بالمسلمين! ومن جانب آخر فإن الاعراب المحيطين بالمدينة وبقية القبائل المشركة سيطمعون أكثر من السابق في ان يغزوا المسلمين وينهبوا أموالهم؛ ظنا منهم ان المسلمين لم يعد لديهم تلك القوة التي يستطيعون بها ان يقفوا بوجه من يهاجمهم،

فهم خسروا قادة عظماء وأبطالاً أصلاء! وجراحهم ما زالت تنزف دما! ونسوتهم ما زلن يندبن! وأنين ايتامهم خيم على أجواء المدينة المنكوبة!

تجاوز النكبة!

كيف يمكن استرداد الخسارة؟ وكيف يمكن ان تعوض الهيبة المسلوبة؟ وكيف يمكن استدراك ما حل بالمسلمين من تبعات احد؟ أسئلة يطرحها النبي صلى الله عليه وآله على نفسه في حوار داخلي، آملا ان يسعفه الغيب بالمناسب! هيبة ومكانة كانت تتمتع بها المدينة بعد بدر الكبرى وقبل احد.. سلبت على حين غفلة منهم؛ بسبب مخالفة بعض المسلمين لنبيهم صلى الله عليه وآله وجريهم وراء الماديات والغنائم!

غير انه ومن حسن الحظ كانت ثمة ظروف تحيط بالمدينة، أعطت النبي صلى الله عليه وآله مساحة في ان يختار التحرك المناسب، الذي يمكنه من استرداد ما فُقد من قوة وهيبة ومعنويات! وتمثلت هذه الظروف بغدر اليهود ورعونة الاعراب، وتآمر بعض القبائل التي وصل خبرها الى النبي صلى الله عليه وآله واتباعه! كلها أعطت التبرير الكافي لمعالجتها أو القضاء عليها.

فكان اول عمل قام به النبي صلى الله عليه وآله هو غزو بني أسد الذين أرادوا ان يهاجموا المدينة وينهبوا مال المسلمين! فأرسل النبي صلى الله عليه وآله سرية تسير ليلا وتختفي نهارا؛ حتى لا يعلم القوم بما دبر لهم! وفعلا في النهاية داهمهم المسلمون فجأة! وغنموا منهم كثيرا! وفي الوقت نفسه لقنوهم درسا بليغا

في ان يفكروا ثانيا بغزو المدينة ومهاجمتها! وبذلك قد استعاد المسلمون شيئا من الهيبة والعزيمة والمعنويات التي أخذتها منهم قريش في أحد!

كما ان ما قام به يهود بني النضير من محاولة الغدر بالنبي صلى الله عليه وآله عندما كان عندهم وبينهم دليل على خيانتهم ومدى خطرهم الأكيد على النبي وأتباعه المسلمين، فأمهلم النبي صلى الله عليه وآله اول الامر عشرة أيام ليخرجوا من المدينة! بعدها سيكونون في حل له! مضت المدة التي حددت! ولم يحرك النضيريون ساكنا! تحصنوا داخل حيهم واتخذوا ما رأوه لازما في مواجهة المسلمين! خصوصا بعدما أمّلهم رأس النفاق ابن أبي بالوقوف الى جنبهم ونصرتهم!

سار المسلمون بعد انقضاء المدة المحددة الى حي بني النضير حاملين السلاح! واندلع القتال بين الطرفين ما يقرب من عشرين ليلة! بعدها امر النبي صلى الله عليه وآله اتباعه بقطع النخيل التي تعود لهؤلاء اليهود؛ لكي يقطع تعلقهم بها، ومن ثم يقبلوا على الرحيل! إذ انها كانت السبب الرئيس في عدم تركهم المدينة! وكان ذلك الفعل بإذن من الله تعالى، إذ قال: **﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾**[1]، إضافة الى أملهم في قدوم ابن أُبي المنافق او غيره من مشركي العرب بالمساعدة والنجدة! غير ان آمالهم بدت صفراء! مما اضطرهم في النهاية الى قبول الجلاء عن المدينة، ورحل بنو النضير صوب

(١) الحشر: آية ٥.

خيبر والشام! وبذلك استطاع النبي صلى الله عليه وآله التخلص من شرهم، وتخويف المنافقين الذين كانوا على اتصال بهم، وهكذا اُستردت الهيبة الاسلامية من جديد! ورجعت المكانة التي فقدت الى ما كانت عليه بعد معركة بدر الكبرى!

بعدها قام المسلمون بقيادة النبي صلى الله عليه وآله بالتهيؤ الى معركة جديدة واعدهم بها ابو سفيان في أحد! وذلك عندما قال لهم: يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل! وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة المباركة، وهو عام جدب تمنى ابو سفيان ان تؤجل فيه الحرب! لذلك التجأ الى حيلة بذلك، فأرسل شخصا الى المدينة يخبر المسلمين بأن قريشاً قد اعدت جيشا كبيرا وعدة عظيمة للقضاء على المسلمين! أراد ابو سفيان من حيلته هذه ان يبادر المسلمون الى تأجيل الحرب! ومن ثم يكون الانسحاب من قبلهم لا من قبل قريش! فتضاف هيبة الى هيبتهم! ويخسر المسلمون الهيبة التي استردوها بعد معركة أحد! استطاع ابو سفيان ان يؤثر في عزيمة ضعاف الايمان ومن في قلوبهم مرض! ذلك عندما عزم النبي صلى الله عليه وآله على الخروج لملاقاة اهل الشرك في موقع بدر، إذ تثّاقل كثير منهم عن الخروج في سبيل الله! غير ان النبي خاطبهم بأنه سيذهب لملاقاتهم ولو كان لوحده! وبذلك الخطاب اُزيلت كل براثن التردد! وانبعثت روافد العزيمة تتدفق من جديد! فتلاشت المخاوف، وذابت وساوس الشيطان، واشتعلت مواقد الدفء والاطمئنان بالنصر الرباني الموعود!

وصل المسلمون الى بدر ولم يأت أحد من مشركي مكة! لأن ابا سفيان بعد ان خرج من مكة بيومين رأى ان النصر لن يكون حليفهم هذه المرة! فخطب بجيشه ودعاهم الى الرجوع فرجعوا! وبقي المسلمون ثمانية ايام ينتظرون مجيئهم! علموا أخيرا بانسحاب كفار مكة من نية المعركة! ففرحوا بنصر الله لهم! فازدادوا هيبة ومكانة ورفعة بين قبائل الجزيرة العربية! رجعوا الى المدينة هانئين فرحين حاملين الربح المعنوي الذي لا يقدر بثمن! كما حملوا ما ربحوه من تجارتهم ببدر مع القبائل العربية.. وقد كان بعد بدر الآخرة غزوة بني غطفان، الذين أرادوا ان يهاجموا المدينة وينهبوا مال المسلمين! فرأى النبي صلى الله عليه وآله ان يسبقهم قبل ان يبادروا هم! وحصل ما رآه الحبيب صلى الله عليه وآله بالهجوم عليهم فجأة وهم لا يعلمون! فهربوا وتركوا وراءهم النساء والاطفال والاموال! فغنم المسلمون المال وعادوا به فرحين بالمنن الالهية التي عوضتهم ما فقدوه في أحد.

محنة الأحزاب!

ها هو النبي صلى الله عليه وآله بدأ في ترتيب الاوضاع الداخلية للمدينة.. بعد هدوء نسبي حل عليهم، عقب سلسلة غزوات وسرايا عقبت احد! وها هم المسلمون الآن ليس أمامهم أي معركة في الأفق سوى التي تواعدوا بها مع قريش، بقيت أمامهم أشهر طويلة، لذلك ارتأى النبي صلى الله عليه وآله ان يستثمر الوقت في ترتيب الصف الداخلي وإعـادة التنظيم، ورص الصفوف، والعمل على تثبيت العقيدة في قلوب المسلمين الضعاف، بما يجعل منهم رجالا متسلحين بالقوة الايمانية العالية والوعي الرصين! وقادرين على مواجهة المحن التي قد تعصف بهم أكثر من ذي قبل.

كما أنـه وفي الوقت نفسه عمل المسلمون على تـدارك الوضع الاقتصادي المتدني بسبب الحروب وانشغال المسلمين بها! لذلك كان اهم ما توجهوا اليه في البدء هو الزراعة التي تعتبر العمود الفقري في معيشة اهل المدينة! وكذا الاهتمام بالجانب الحرفي والتجاري بما يساهم في رفع المستوى المعيشي للفئات الاجتماعية كافة.

وكـان من الاهتمامات التي توجه إليها المسلمون هو الجانب الاعلامي الهام في الدعوة الى الحق والدين الحنيف، ومن ثم إقامة

تحالفات جديدة من شأنها إعادة رسم خارطة القوى التي تسيطر على الجزيرة العربية! غير ان تلك الآمال والخطط التي عقدها النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه لم يستمر العمل عليها! إذ وصلتهم الانباء بالخطر الرهيب! نعم، فها هي جحافل الكفر والطغيان تزحف من مكة متجهة صوب المدينة! والمسلمون لم يتوقعوا حدوث مثل ذلك! فالمتوقع عندهم هو الحرب التي كان قد اُتفق عليها مع ابي سفيان! والتي ستنحصر مع مشركي مكة فقط بعد عام! غير ان الدور الذي لعبه اليهود في تأليب القبائل العربية التي كان لديها مع المسلمين عداء وثأر قد غير مجرى الامور! فصار الناس في المدينة مذعورين مضطربين! ما عساهم ان يفعلوا قبال قوة كبيرة أضعاف ما كانت بأحد! فيها فرسان وابطال واشداء لم يُشهد بمثلهم في المعارك التي وقعت مع المسلمين!

دور اليهود في جمع الاحزاب!

كادوا قديما بأخيهم يوسف عليه السلام ! ثم كادوا بأخيهم الآخر بنيامين! بل كادوا بأبيهم النبي يعقوب عليه السلام! ويستمر كيدهم الى ان يصل الى النبي موسى عليه السلام بعدما أراهم المعاجز المذهلة! فلوّعوه وأتعبوه! حتى استحقوا فيما بعد لقب قتلة الانبياء! لأن ذلك قد صار من اليهود عادة! حتى قيل ان عدد من قتل من الانبياء بلغ عددا كبيرا! هذا مع من هم ينتمون إليهم! فما بالك مع من هم يرونهم أدنى منهم خلقا وعرقا وأخلاقا!

استمر خبثهم على مر التاريخ، الى ان جاءت رسالة الاسلام المحمدية فثارت الضغائن اليهودية! وبدت دسائسهم واحدة تتلو الاخرى! الى ان وصلت المهمة الى زعيم بني النضير الذين أجلاهم المسلمون عن ديارهم وهو حيي بن أخطب، حيث قام هو ومن معه بالذهاب الى مكة ولقاء زعمائها، يدعوهم الى التحالف معا في قتال محمد صلى الله عليه وآله والقضاء عليه! وبعد نقاش طويل استطاع اليهود اقناع قريش بحرب النبي صلى الله عليه وآله معاً بموعد اتفقوا عليه، وقد وعدهم وأملهم ابن اخطب بأنه سيذهب الى القبائل العربية التي لها مع المسلمين طلب وثأر، وسيعمل على اقناعها بالتحالف المأمول انشاؤه، والذي سيهجم على المدينة بالموعد الذي أُبرم! وحصل الذي خطط له اليهود من التحشيد والتعبئة الهمجية الحاقدة على الاسلام ونبيه! فتكونت قوة كبيرة من قريش ومواليهم الاحباش ومن القبائل أسد وغطفان وفزارة وسليم وأشجع ومرة!

توجه الاحزاب نحو المدينة!

تجمعت حشود الظلام.. يسوقها ابليس الى جهنم.. يصور لهم نصرا هلاميا، لا وجود له إلا في خيال الانفس المريضة والمنحرفة! مُوعِدهم بأمانٍ زائفة! فمشوا الى قدرهم المشؤوم.. بجيوش جرارة، تجر معها نعوشا وأكفانا وقبورا، وكأنهم قد أخبروا بأن مسيرهم هذا هو المسير النهائي! وكانت الاحزاب تقدَّر بأكثر من عشرة آلاف مقاتل! ساروا

بتلك القوة الرهيبة التي لم تشهد الجزيرة العربية بعدتها وعديدها! يقودهم أبو سفيان بن حرب الاموي، الحاقد والناقم على الاسلام ونبيه وأتباعه!

وعندما خرجوا من مكة قاصدين المدينة خرج اربعة نفر من خزاعة في مكة يبتغون ان يصلوا الى طيبة بأسرع وقت ممكن لإخبار النبي صلى الله عليه وآله بذلك! ليتخذ لذلك ما يلزم من تدابير، فأسرع النبي صلى الله عليه وآله بمشورة الاصحاب فيما يلزم اتخاذه، فاتفقوا أخيرا وبإشارة من سلمان المحمدي على حفر خندق كبير لا يتمكن العدو من اجتيازه، انها خطة دفاعية ليس للعرب بها علم وعمل، ولما وصلت الجيوش الجرارة الى مقربة من المدينة تفاجؤوا بالخندق! وعلموا انها خطة دفاعية عملية، فالخيل لا تستطيع ان تعبرها، وهم ان عبروا بلا خيل فانهم سيكونون صيدا سهلا للمسلمين! فعسكروا بجوار الخندق الذي يعزل بين الجيشين، القرشي والاسلامي، وكان الكافرون يقودهم ابو سفيان، وراية جيش المسلمين بيد الامام علي بن ابي طالب عليه السلام.

المفاجأة والصدمة!

اقتربت الاحزاب من المدينة.. وأنفسهم متلهفة الى الاجتياح العارم! اجتياح المدينة بسيل من الوحوش الكاسرة! يسيل من فمها لعاب الانتقام والشراهة المفرطة! بدت خطاهم في تسابق معهم، كلٌّ يتحدث مع نفسه أو مع صاحبه الآخر كيف سيمثل بمحمد! وكيف سيقطع أوصاله! فأهم شيء هو الظفر بمن سبب الأحزان، وبابن عمه

علي الذي مزق الأحبة والخلان وفرقها!

إلا ان تلك الامنيات قد فوجئت بخندق عظيم! مفاجأة كبيرة من نوع جديد، لم يُعهد بمثلها للعرب من قبل، بدأت حسرات ابي سفيان تطفح! وبدأ الغضب منه يفور! فلم يجدوا بدا من عبوره، لذلك عسكروا بجانبه أملا بإيجاد حل لتلك المشكلة التي لم تكن في الحسبان! وبدت هنالك مناوشات بين الجانبين! وذلك من خلال الرمي بالسهام والحصى! غير انها لم تتعد ان تكون أكثر من مناوشات لا أكثر.

استمر الوضع على ما هو عليه اياما وأسابيع، مما جعل كثيراً من الفصائل المشركة المتحالفة تظهر الضجر والملل وتعاني الانكسار المعنوي! لأن منهم من لم يأت إلا بعد ان قيل لهم ان الحرب لا تطول أكثر من يوم واحد! فلم يتهيؤوا لمثل هذا الظرف، ولم يتخذوا ما يلزم للعسكرة لأيام طويلة وأسابيع! عدا قريش فقد دفعها الى الاتيان لهذه الحرب تلك الوعود التي قُطعت من اليهود بواسطة حيي بن أخطب، إذ أملهم بأن اليهود في المدينة الممثلين ببني قريضة سينقضون العهد مع النبي صلى الله عليه وآله، ويقفون مع الاحزاب ضده في الحرب! غير ان بني قريضة في بادئ الامر قد رفضوا ذلك الشيء، مما جعل كثيرا من القرشيين يتذمرون! وضجرت أكثر الاحزاب أيضا، مرت أيام عديدة ولم يحدث اي تغيير، ففشى بينهم الملل، ونشأت مشكلة كبيرة بالنسبة للأحزاب.

تدارك الضجر!

فرصة ليست كالفرص! وتحشيد قل النظير له! وأعداد لم تشهد جزيرة العرب بمثلها! وسلاح وعدة لا حول للمسلمين ولا قوة قبالها.. بتلك العبارات كان ابو سفيان وابن اخطب اليهودي يتهامسان! ان الأحزاب بالنسبة للمشركين هي الفرصة الأعظم التي ان لم تنجح في القضاء على المسلمين فلا فرصة بعدها! فلا بد من استثمارها وعدم التفريط بها! إلا ان إطالة فترة المكوث عند الخندق أوصلت الحالة النفسية والمعنوية عند مقاتليهم الى مستوى من الضجر والاضطراب! مما جعل بعض قادتهم يفكرون بوسيلة ترفع من معنوياتهم، وفي الوقت نفسه تمكنهم من التأثير على المسلمين وتحطيم وإضعاف صبرهم وعزيمتهم! فقام الزعيم اليهودي حيي بن أخطب بتلك المهمة! حيث أنه أوعد الاحزاب بأنه سيذهب بنفسه الى بني قريضة ويجعلهم ينقضون العهد وينضمون الى الاحزاب! وبالتالي سيفتحون لهم الممرات التي سيدخلون منها الى المدينة!

حصل ما أراد ذلك الخبيث بعد جهد من الاقناع والاغراء لزعيم قريضة! وعلم النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه بذلك، فصاروا في موقف لا يحسدون عليه! وفي الوقت نفسه بدأت مجموعات من جيش المشركين بالتناوب في الهجوم محاولين عبور الخندق! وصار الرعب لا يفارق المسلمين! وقد صور لنا القرآن ذلك الموقف أحسن تصوير إذ قال: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ**

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا۝هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا۝وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا۝وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1]!! فالذين جاؤوا من فوقهم هم الاحزاب يريدون عبور الخندق ليقضون على المسلمين! ومن اسفلهم اليهود من بني قريضة! إذ هم من خلفهم في المدينة، وظن كثير من اهل المدينة الضعاف انهم قاب قوسين او ادنى من القضاء عليهم وتدميرهم! فصار الخوف سيد الموقف! وفي الليل بدت حرب الكرّ هي السائدة! فتخبطوا خوفا واضطرابا! حتى قال البعض فلنتخذ من الصحراء ملجأ؛ لأن البقاء في المدينة يعني الموت بحراب الاحزاب! وأخرى تعللت وتعذرت لتهرب من المعركة بأن بيوتهم مكشوفة وعليهم الذهاب لحمايتها! واغلب أولئك كانوا من المنافقين والمخادعين والذين في قلوبهم مرض! والذين أرادوا الفرار وترك النبي صلى الله عليه وآله يواجه مصيره الذي كتب عليه كما يرون!

ومن جانب آخر كان هنالك بعض من ابطال الكفار يبحثون عن ثغرة في الخندق ليعبروا منها، وأخيرا وجدوا مكانا ضيقا فعبره عمرو بن عبد ود العامري ومجموعة من الفرسان! جال ذلك المارد الكبير أمام

(١) الاحزاب: ١٠ - ١٣.

جيش المسلمين رافعا صوته مستهزئا! متحديا من يخرج فيقاتله! فصاح مكررا يريد منازلا له! فاستأذن علي عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله ليخرج له، فرفض النبي صلى الله عليه وآله، ثم التفت رسول الله صلى الله عليه وآله الى الصحابة الذين كانوا معه طالبا منهم ان يخرج احدهم لقتال ذلك المشرك الطاغي، فلم يجبه أحد! وكأن في آذانهم وقرا! حينئذ قبل النبي صلى الله عليه وآله من علي ان يخرج، فعممه بعمامته، وأعطاه سيفه، ودعا له.

خرج الإمام أبو الحسن الى نزال ذلك المشرك المتجبر! فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**خرج الايمان كله الى الشرك كله**»[١]! وبعد ان رآه عمرو قال له: «انا لم آت للقتال مع شاب صغير مثلك! ارجع الى اهلك»، فرد عليه ابو الحسن: «**لكني انا اريد ان اقتلك**»! بعدها قبل عمرو بقتاله، ونزل من فرسه، ثم سل سيفه البتار الذي ما قابله أحد إلا وقطّعه به! التحم البطلان وثارت الغبار وقلوب المسلمين ترتجف! حتى خرج صوت مدوٍ خرق الغبار القاتم: الله أكبر! فعُرف ان عليا قد انتصر على عمرو! زالت الغبرة وانكشف الانتصار! فإذا علي واقف يرتجز مفتخرا بذلك! وعدو الله متمرغ بتراب الهزيمة والخسران! فكبر النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون جميعا فرحا وشكرا لله! ففر بقية الفرسان الذين عبروا مع عمرو! فحدث بذلك انكسار عظيم في معنويات جيوش الظلام! وبدت تباشير النصر تلوح في الأُفق!

---

(١) الصحيح من السيرة، ج٩، ٢١٨.

الانتصار الرباني!

بعدما كان هنالك خوف رهيب! ورعب جاثم على صدور المسلمين! جاءت البشرى تُزَف بإيذان من الله ان يقوّم ما ثلم من القلوب! ويُرفع ما جثم عليها من الكروب! واضعا مكانها الفرج الكبير! فكان اول ما كان مقتل فارس الاحزاب، وبطلها الاعظم بلا منازع، الذي عُدّ بألف فارس! عمرو بن عبد ود العامري! بعدما طغى وتجبر، فكان له الإمام ابو الحسن الدواء الأبهر! الذي لولاه لسادت المعضلات، ودب الانكسار بين المسلمين كالنار في الهشيم!

عُدّ ذلك المنجز العلوي ضربة في صميم تجبر الكافرين وزهوهم! وشرارة أشعلت عليهم نار الوعيد الالهي! فبدت الانكسارات متوالية، والصيحات متزاحمة، وقادة الاحزاب فيما بينها متلاومة! الى ان أغشاهم الليل خائفين مذعورين! وصارت تلك الخشب المسندة كأنها كلاب مسعورة! فأضحت هيبتهم خاوية! وأتتهم حينئذ ريح صرصر عاتية! فأقلعت خيامهم! وخربت عساكرهم! ودب الذعر في صفوفهم! فصار كل حزب بما لديهم محزونين! لا يهمهم سوى النجاة بأنفسهم! فتفرقوا وانسحبوا الى وجهة الديار، يجرون خلفهم أذيال الخيبة والخسران! متقمصين ثياب الذل والهوان! وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

قريظة بعد الاحزاب

فرت الاحزاب من المعركة! تنفس المسلمون الصعداء، وصلى المؤمنون شكرا لله على منه، ثم عادوا الى المدينة حاملين معهم نشوة الانتصار، والآن سيبدأ الحساب مع الناكثين عهدهم! بعد ان تُركوا يواجهون مصيرهم المحتوم! فمن سيجير قريظة من المسلمين؟ وهل هم على مقدرة في مواجهة النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه؟ أم انهم سيتبعون ما سارت عليه بنو النضير؟ وفي المقابل هل ان النبي صلى الله عليه وآله سيتبع معهم ما فعل بسابقيهم من بني النضير؟ أم انه على معرفة مؤكدة بأنهم سيكيدون بالمسلمين مرة اخرى؟

تسارعت الاحداث في جريها، وبعد ان انتهى المسلمون الى مدينتهم فرحين بنصر الله، نادى منادي رسول الله بالجهاد والمسير الى بني قريظة! فخف الجميع بتلبية النداء، ساروا وقلوبهم مليئة إيمانا بنصر الله لهم، حتى علمت اليهود بذلك، فتحصنوا بحصونهم، وانضم اليهم حيي ابن اخطب، زعيم بني النضير وصاحب السبق في تأليب الاحزاب على المسلمين!

حثهم الرسول على الاستسلام، فرفضوا وأبوا إلا العناد، حاصرهم

المسلمون وضايقوا عليهم، وبدت مناوشات بالسهام والحجارة، حتى مر أكثر من عشرين يوماً، تعب اليهود جراء الحصار، وأيقنوا ان النصر حليف المسلمين، عند ذلك طلبوا سعد بن معاذ حليفهم حكما، بعد ان اعمى الله بصيرتهم! إذ ظنوا انه سيحكم بما لا يصل الى أكثر مما فُعل ببني النضير! فحكم بقتل المحرضين منهم والمقاتلة وأسر البقية! وبهذا انتهت صفحة من صفحات الغدر والخيانة، بعدما غنم المسلمون مغانم كثيرة.

صعود نجم المسلمين!

انتهت أحداث قريظة، وانتهى معها عهد، وبدأ عهد جديد، عهد الهيبة والمكانة السامية بين العرب جميعا! فها هي العرب بدأت تحسب للمسلمين ألف حساب وحساب، أصبحوا القوة الأبرز في الجزيرة العربية، وتوفرت للمسلمين من الامكانات المعنوية ما لم تتوفر لغيرهم، فالتعبئة والتحشيد يتم بأوقات قصيرة جدا، فعلى سبيل المثال نذكر انه قد تعرض بأطراف المدينة رجل وامرأته وهما مسلمان الى غدر عيينة بن حصن وجماعته، الذين قتلوا الرجل وأخذوا المرأة والابل، ثم راحوا سراعا صوب غطفان؛ كي لا يُدركوا من قبل المسلمين، فلما ان سمع النبي صلى الله عليه وآله بذلك حتى صاح: **الفزع الفزع!** فأسرعوا خلف الجناة الى ان حرروا المرأة وأرجعوا السلب بزمن يسير! كما انه صلى الله عليه وآله عندما سمع بمكيدة بني المصطلق المنتمين الى خزاعة وما يدبرونه لقتله، عبأ جيشا واسرع به الى هؤلاء، فداهمهم وهم لا يشعرون! فكان ان قضى على تمردهم!

معاهدة الحديبية

أمور قد استقرت، وإشكالات قد أُحلَّت، وقضايا كثيرة حسمت لصالح النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه! فجبهة المدينة الداخلية تمت السيطرة عليها بعد إفراغها من اليهود الماكرين، والمنافقون ليس بوسعهم بعد ان يفعلوا شيئا، أما الجبهة الخارجية فقد تفككت الى أحزاب متناثرة لا ثقة فيما بينها، وأهم من ذلك كله هو الزيادة الملحوظة في اعداد المسلمين التي شهدت دخول كثير من القبائل الى الاسلام! بعدما رأوا فيه إعجابا، وملاذا من التيه والانحلال، الى ان وصلت السنة السادسة من الهجرة، عندها وجد النبي صلى الله عليه وآله ان القوة الآن بيد المسلمين! وأنه قد آن الأوان لأن يتحرك تحركا ستراتيجيا يعطي الإسلام والمسلمين زخما الى الأمام!

رأى رسول الله صلى الله عليه وآله بمدد رباني ان يخرج بالمسلمين الى مكة! لأداء فريضة الحج، فحشد لذلك أكثر من ألف وأربعمئة مسلم! ثم توجه بهم الى مكة بعد تأكيده المتواصل على سلمية القضية، وعدم الجنوح الى القتال إلا دفاعا، وهكذا سمعت قريش بذلك فأقسمت على ان لا تدع المسلمين يدخلون مكة إلا بعد ان تُباد قريش عن بكرة أبيها! وأخرجوا جيشا يقوده خالد بن الوليد ليمنع المسلمين من ذلك، فأخذ المسلمون

طريقا بين الجبال مبتعدين عما يؤدي بهم الى التصادم مع المشركين، أخيرا وصلوا الى وادي الحديبية، عندها بركت ناقة النبي صلى الله عليه وآله! فاستفهم الصحابة عن ذلك! فقال صلى الله عليه وآله: «**قد حبسها حابس الفيل**»! إشارة الى انها بركت بإرادة الله سبحانه! لحكمة يعلمها الله ورسوله تكون في صالح الدين وأتباعه! وقد جاء الى النبي صلى الله عليه وآله من يخبره بأن قريشاً قد شهرت سيوفها، وأرسلت له من يحذره دخولها! ثم حصل بعد ذلك أن أرسل النبي صلى الله عليه وآله بعضا من المسلمين الى مكة للتفاوض مع قريش حول ذلك! حصل حينها لغط وسجال وإشكالات كادت ان تؤدي الى اشتعال الحرب! حتى انتهت الامور الى عقد معاهدة وهدنة بين الطرفين مدة عامين، وأن يرجع المسلمون الى مدينتهم هذا العام، ويحجون العام القادم، وقد اعترض بعض الصحابة على المعاهدة! ورأوا فيها من التنازلات الكثيرة، وأنها تخدم الكافرين أكثر من المسلمين! لكن الاحداث التالية بينت ان سياسة النبي صلى الله عليه وآله كانت مسددة من الله سبحانه، وأن الحديبية ما هي إلا فتح عظيم! فكان من نتائجها ان استقطب الاسلام اعدادا كبيرة زادته هيبة ومكانة! وبذلك تكون الحديبية قد هيأت الأمور الى يوم الفتح الأعظم! يوم فتح مكة وتحطيم الأصنام!

حكمة بروك الجمل!

ما زال الله في عون نبيه وسيبقى! وما زال يدافع عنه وإلى الأبد!

دعاهم الى حج البيت في ذلك العام، وأخبرهم بأنهم سيحجونه! لكن الظروف حكمت نهاية المطاف الى معاهدة لغت حجهم في عامهم الحالي! ولهم ان يأتوا لذلك العام المقبل! فعارض من عارض من الصحابة واستنكر من استنكر! وقال للنبي صلى الله عليه وآله: ألم تقل بأنا حاجّون البيت؟ فأجاب الرسول بـ«**نعم**»، لكن ليس بالضرورة هذا العام، ولو أن ذلك الصحابي تأمل في بروك الجمل وما قاله الرسول بذلك لما تجرأ واستنكر! فقوله صلى الله عليه وآله يفهم ذوي الأنفس الطيبة والنظيفة أن الله سبحانه قد قضى وقدر بعدم الحج هذا العام! وكان يستطيع ان يوحي الى حبيبه بذلك دون الحاجة الى بروك الجمل! لكنه سبحانه أراد شيئا يراه أتباعه بأم أعينهم! فحبس الجمل كما حبس الفيل عن التقدم الى الكعبة لتهديمها! تعالى الله أحكم الحاكمين!

بيعة الرضوان

تعنتت قريش بموقفها! رافضة دخول المسلمين الى مكة، فأرسل النبي صلى الله عليه وآله بعضا من المسلمين ليتفاوضوا معهم، وبعد ان ذهبوا وصلت شائعات بأن قريشاً قد قتلتهم! ففزع المسلمون لذلك، وانتفضوا للانتصار لهم! ونزل النبي صلى الله عليه وآله تحت شجرة ونادى مناديه بأن الرسول يطلبكم لبيعته! فتهافتت الناس لذلك، وبايعه القوم كلهم سوى شخص واحد من المنافقين! أي إنه قد بويع الحبيب من أكثر من ألف وأربعمئة شخص، وكان المنافقون من ضمن المبايعين! حتى ابن سلول زعيمهم وكبيرهم! وقد كان فحوى البيعة هو أنهم يبايعونه على الموت في سبيل الدين وعدم الفرار وخذلانه! ونزل في ذلك مدح للمؤمنين منهم، حيث قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[1]، ولا حجة لمن يقول ان ذلك دليل على عدالة كل من كان في الحديبية! لأننا سنقول لهم: إنكم متفقون على نفاق ابن سلول وجماعته الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله مع المبايعين! فهل ان الله راض عن المنافقين؟!

(١) الفتح: ١٨.

غزوة خيبر

حنكة محمدية عالية! وذكاء نبوي مسدد! وسياسة ليس لها نظير! عقد هدنة مع قريش ليأمن خطر الجنوب! ميمّما وجهه شطر الشمال! حيث الخطر الخيبري المغلي، الكامن تحت الرماد! ليجعل الساحة مهيأة في دعوة ملوك زمانه في الشرق والغرب والجنوب والشمال! يا لحكمة رسول الله! ويا لحنكته السياسية! فبقاء خيبر على ما هي عليه وغضب كسرى وهرقل عظيمي فارس والروم المحتمل عندما يجدان في الاسلام ندا ربما سيُستغل يهوديا! فيعقدون معهم أحلافا للقضاء على المسلمين!

ما إن وصل النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون بعد الحديبية الى المدينة حتى شرع بالتعبئة للقضاء على يهود خيبر! خرج ما يقرب من ألف ونصف الألف من المجاهدين! حتى وصلوا الى حصون خيبر صباحا، مفاجئين أهلها الذين لم يعلموا بالهجوم! فصاحت اليهود ان محمدا وأتباعه جاؤوا بالهجوم، حتى أغلقت أبواب تلك الحصون العصية، وأقيمت الدعامات القوية؛ لإحكام السيطرة الكاملة على وضعهم الدفاعي بوجه المسلمين.

حوصرت خيبر أياما، والعرب كلها تسمع بعمل المسلمين، علت

مكانتهم أكثر! وسما شأنهم بين القبائل، وأصبح النبي صلى الله عليه وآله محط إعجاب! كل ذلك ساهم فيما بعد برفد الاسلام عناصر جديدة! جعلت منه قوة لا تقهر في الجزيرة!

تمر الايام والليالي والحصون مؤصدة محكمة لا يقوى على اقتحامها أحد! أرسل النبي صلى الله عليه وآله القائد تلو الآخر على رأس الجيوش لتقتحم حصون خيبر، فعادت خائبة لم تستطع ان تفعل شيئا! عند ذلك وقف النبي صلى الله عليه وآله أمام الجميع وقال: «**سأعطي الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار**»! فراح الجميع يأمل ان يكون هو المعني! أتى الغد وبدا الصحب يتجمعون عند النبي صلى الله عليه وآله! حتى نادى بينهم: «**أين علي**»؟ فقيل له إنه رمد! فقال: «**ائتوني به**»، فجاء الامام ثم مسح النبي صلى الله عليه وآله على رمده فشفي! وأعطاه الراية ودعا له، فذهب الامام الى الحصن بعد أن عبر الخندق المحيط به! وقف على باب حصنهم الاكبر الذي كان يحمله أربعون رجلا! فارتعبت اليهود منه وانذهلت! حتى تناجوا فيما بينهم وقالوا هذا قاتل ابطال قريش وصناديدها! قام الإمام أبو الحسن بقلع الباب وحده! نعم ها هي القوة الربانية كما نسبها الامام نفسه! وها هي البطولة العلوية التي لا تقهر!

جعل الامام ذلك الباب جسرا يعبر عليه المقاتلون، ثم دار القتال بين الجانبين، حتى قضي على من قضى، وأُسر من أُسر، وانتهى الخوف من اليهود نهائيا! ولم يبق ما يخشى منهم..

العودة من الحبشة

شوق في القلب قد استعر! وحنين في الفؤاد قد انفجر! ونار بين الجوانح لا تنخمد! فهام الخيال من البعد وأتعب المنظر! هكذا حال من كان في الحبشة من المسلمين.. حنوا الى تراب الجزيرة ونسيمها اللافح، حنوا الى تلك البراري الشاسعات التي تحكي لهم ألف قصة وقصة عن الآباء والأجداد، حنوا الى أرض مُزجت برفات الانبياء! والى نبتها المرتشِف من زمزم التوحيد والصفاء!

فالهجرة وما حصل بعدها من امور ايجابية في صالح المسلمين، قد وصلت اخبارها الى المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة، وما ان سمع هؤلاء بتلك الانباء الطيبة والسعيدة، حتى عزموا على شد الرحال والالتحاق بالقائد والزعيم! واللقاء بالاحبة والاخوان ورفاق الدرب القويم! نعم فالمدينة هي الوجهة المأمولة لكل المستضعفين آنذاك! لما شهدته من تحول كبير في صالح النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه..

هكذا اذن جمع بقيادة جعفر بن ابي طالب عليه السلام قرروا العود الى الجزيرة العربية، واللحاق بطيبة النبي صلى الله عليه وآله واتباعه! وقد كان عددهم كما قيل ثلاثة وثلاثين شخصا، عرج بعض منهم على مكة، حيث الاهل

والوطن والعشيرة! أو لأن قسما منهم أراد ان يأخذ اموالا له قد تركها وهاجر خلاصا بنفسه من بطش قريش! وقد ذكر ان بعضا منهم قد وافاه الاجل بعد الوصول الى مكة، كما ان بعضهم قد أمسكت به قريش فأودعته السجن وقامت بتعذيبه! ووصل أكثرهم الى ملاذهم الجديد طيبة! حيث الحبيب صلى الله عليه وآله واتباعه قد سادوا، وصار لهم شأن بين قبائل الجزيرة العربية! ويذكر ان ذلك كان في السنة السابعة من الهجرة النبوية المطهرة..

دعوة الملوك الى الاسلام!

عجلة الاسلام تشهد انعطافا مفصليا جديدا! إذ هي الآن بدت تنطلق من فضائها الضيق الى فضاءاتها الأرحب! فالنبي محمد صلى الله عليه وآله ذلك النبي المستضعف قبل قليل من السنوات بدأ يرسل المكاتيب الى ملوك الارض يدعوهم فيه الى الاسلام! ويحذرهم مغبة العناد والوقوف بوجه دين الله! ذلك الأمي الذي أتى من عمق الجزيرة والصحراء بدأ يخاطب كسرى فارس وهرقل الروم! يا لعظمة هذا الدين! ويا لسداد نبيه الكريم! فمن كان يظن أن يحدث ذلك يوما ما؟!

لقد كان أغلب من أرسلهم النبي صلى الله عليه وآله قد اُستُقبلوا بحفاوة ولين من قبل الموفدين إليهم، كهرقل ملك الروم، أما الذين قابلوا تلك المراسيل بالعناد والتكبر فهم قليل جدا، وكان أبرزهم كسرى الذي غضب ومزّق رسالة النبي صلى الله عليه وآله! وأوعز الى عامله في اليمن بازان بأن يسير بجيشه صوب المدينة، ويحطمها بمن فيها جميعا! ولعل الخسارة التي مني بها الفرس أمام الروم قد ساهمت في غضب كسرى! وأخيرا لم ينفّذ أمر سيده بالمسير الى المدينة؛ لأنه علم جيدا ان الامر ليس سهلا كما يعتقد كسرى! كما ان هزيمة الفرس امام الروم قد شجعت نوعا ما

اليمنيين على التخلص من حمك كسرى! فالوقت مناسب جدا لأن تخلع تلك التبعية بعد ان برزت قوة جديدة في المنطقة ممثلة بدولة الاسلام!

المسلمون يدخلون مكة!

أمة خرجت بانتصارات كبيرة، وبغنائم وفيرة، وبانتظام عالٍ، وهمة عالية، وأكثر من ذلك شوق عظيم الى بيت الله الحرام! الذي صُدّوا عنه ظلما وعدوانا! ألفان يقودهم الحبيب صلى الله عليه وآله بهيبة لم يُروا مثلها! سيدخلون مكة وفق الاتفاق المبرم بالحديبية مع قريش.

هكذا غدت الكعبة ومسجدها، والصفا والمروة وزمزمها، كلها تحت تصرف النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه! وهكذا سادت هيبت المسلمين على مكة بأجمعها! حتى أثّرت بالناس وغيّرت كثيرا من قناعاتهم؛ لما رأوا أخلاق المسلمين وتنظيمهم وطاعتهم للنبي صلى الله عليه وآله، إذ كان المسلمون يلبون بصوت واحد بلحن مؤثر: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك»، كل ذلك ساهم فيما بعد في انهيار الجبروت القرشي أمام الزحف المحمدي وفتح مكة بعد أن نقضوا العهد والميثاق!

بقي المسلمون ثلاثة أيام في مكة، بعدها طلبت قريش منهم الخروج بعد استنفاد المدة المتفق عليها، فنادى الحبيب أتباعه بذلك رغم قدرتهم على الانقلاب وظروفه المناسبة! سوى العهد الذي لا يمكن بأي حال

من الأحوال ان ينقض من عظيم الخلق والأخلاق! فخرجوا ظافرين مرفوعي الهمم! مدركي الفتح الذي بُشر به النبي صلى الله عليه وآله في رؤياه التي حكاها للمسلمين قبل الحديبية!

مؤتة الألم!

جاؤوا من الجنوب فرحين مغبوطين! فنفروا الى الشمال غاضبين مأسوفين! مرة أخرى يُغدَرون! لأنهم بالحق مؤمنون! فتلك الثلة المؤمنة من الدعاة الى ربهم يلقون حتفهم على يد البغاة! ذنبهم الوحيد هو الدعوة الى دين الله، ونبذ الاصنام والانحراف! إذ أرسل الحبيب صلى الله عليه وآله مجموعة من أهل الدعوة للتبشير بالحق، ولما وصلوا الى منطقة من الشام قرب مؤتة، وعلم الناس بما معهم، حوربوا وحوصروا فأبوا الاستسلام، فاستشهدوا كلهم عدا واحدا استطاع الهرب منهم! فأسرع الى النبي صلى الله عليه وآله ليبلغه بما حصل، فما ان علم الحبيب حتى أمر مناديه بجمع الناس واستشارتهم بالأمر، فكان ان يُرسل جيشا من ثلاثة آلاف جندي يقودهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فإن قتل فزيد بن حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فللجند ان يختاروا من بينهم، وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة المباركة.

فبعد ان نفرت ثلاثة آلاف من المجاهدين الى مؤتة، جهز الروم أكثر من مئة ألف من مقاتليهم! المجهزين بالعدة الجيدة والنظام الرصين والتدريب العالي! فحدث ما حدث للمسلمين! من خسارة

كبيرة! أهمها فقد جعفر الطيار الفارس الشجاع، الذي خلف وراءه تاريخا مشرقا في سبيل الاسلام ونبيه العظيم! وقُتل القائدان الفذّان زيد وابن رواحة شهيدين من أجل إعلاء راية الاسلام! بعد أن أبليا في الجهاد بلاءً حسنا! وحصل الانكسار بسبب العدد الكبير لجيش العدو! وأرض الحرب التي لم يُعهد للمسلمين أن يطؤوا أرضا بمثلها! فكان ما كان من النتائج المؤلمة على النبي والمسلمين أجمع.

شهادة جعفر!

كم كان يُنظر الى المنفي في المهجر! وكم كان يُتَلوى ببعده عن المنظر! جاء جالبا معه عبق الآباء والأجداد! وجاء بالخلق والشبه والمحضر! أتى الحجاز حاملا نعشه على كتفيه! ومتشبثا بأكفانه بكلتا يديه! أخيرا عاد جعفر بن ابي طالب من الحبشة، بعد ان انتصر المسلمون على يهود خيبر، وسعد به الرسول صلى الله عليه وآله كثيرا! حتى قال: **أأسعد بقدومك يا جعفر أم بالانتصار على اليهود؟!** لكن ذلك الفرح وتلك السعادة بابن ابي طالب لم تدم طويلا! أجل فها هي الأنباء المرّة تأتي الى المدينة المنورة سوداء مغبرة! كاشفة المشهد الرهيب والمأساوي لأحداث تراجيدية حلت بالقائد المغوار، والنجيب جعفر الطيار! الذي قاتل ببسالة حتى قطعوا يمينه! فلم يستسلم وبقي حاملا راية الاسلام بشماله حتى قطعت هي الأخرى! ولم يستسلم.. فتناول السارية بين رجليه كي لا تسقط راية الاسلام! فما أعظم النبي صلى الله عليه وآله بهكذا رجال! وما أعظم هذا

الدين بقادة بواسل كجعفر! وكانت وقع نبأ شهادته مؤلما على قلب الحبيب.. فللّه درّ من صور حجم البطولة والمأساة على الاسلام:

هبت رياح البُشرْ، بالمسك والعنبرْ..

زفت عظيم النعشْ، بكياً على الأنفرْ!

جاءت ليالي الهجرْ، توفيه في قصٍّ!

صاحت نياح الفقدْ، بالشام قد عفّرْ!

أسقى عطاش الثارْ، من مائه الأندى!

فأروى نبات الدينْ، والبيت قد عمّرْ!

فتح الفتوح مكة!

صوت من الجنوب قد علا!

وأخبار روت أنْ زرع النبي قد نما!

أين رواد مروة والصفا!

أين حامل التوحيد راية ولِوا!

أجل إنها الكعبة المشرفة! بل مكة كلها تنادي! أقبل يا نبي الله! أقبل يا حبيب الله! فإن الأبواب لكم مُشرَعة! والقلوب لرشدكم مفتوحة!

نكثت قريش العهد والميثاق الذي أُبرم في الحديبية مع المسلمين، بسبب انحيازهم الى حليفتهم كنانة ضد قبيلة أخرى وهي خزاعة حليفة النبي صلى الله عليه وآله! هكذا وصلت الأخبار الى المسلمين، فقرر النبي صلى الله عليه وآله ان يجمع جيشا جرارا مهيبا! ويعلن أنه يريد ان يدخل مكة فاتحا! داعيا الله تبارك وتعالى ان يصم آذان قريش ويغشي أنظارهم عن خروج المسلمين لفتح مكة! وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة.

أما الطغاة القرشيون وأحلافهم فقد بدوا عن أكثرية الأتباع معزولين! وبالنُصرة من عندهم مخذولين! جاء الحبيب ومعه عشرة

آلاف من المقاتلين! ورسم خطة لدخول مكة من أربعة محاور، وعندما وصلوا الى أطراف مكة علم المشركون، ولم يقدروا على التهيؤ للحرب، خصوصا ان كثيرا من أتباعهم ـ كما قلنا ـ قد تغيرت قناعاتهم بعد ان رأوا هيبة المسلمين وسمو أخلاقهم!

جاء أبو سفيان الى النبي صلى الله عليه وآله وهو سائر على أعتاب مكة، يريد الصلح والعفو! وبعد ان شُرط عليه بالإسلام أسلم متجرعا مرارة الشهادتين! ثم ان العباس قد أخبر النبي صلى الله عليه وآله ان ابا سفيان رجل يحب الوجاهة، عسى ان يمنحه شيئا مما يلين قلبه تجاه الدين الجديد! فأخبر النبي صلى الله عليه وآله أبا سفيان ان اذهب الى أهل مكة وأخبرهم ان عليهم ان يبقوا في بيوتهم ولهم الأمان! وأن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن! فرح ابو سفيان بذلك الوسام الذي قلده إياه المصطفى صلى الله عليه وآله، وراح يصيح في الناس ان الزموا بيوتكم ولكم الأمان! وان النبي قال من دخل داري فهو آمن! فصاحت هند أم معاوية، اقتلوه فإنه قد ضل وجبن! وبدت تحرضهم على القتال والمقاومة من دون جدوى! فمن له قبل بذاك الجيش العظيم! وذلك السيل الجارف!

الدخول المبارك

دخلت جحافل الفتح مرفرفة راياتها! وسارت الى عمق مكة بزهو هيباتها! بعد أن أذن الله سبحانه لنبيه ساعة يدخل فيها بجنده شاهرين سيوفهم! ليطوي بذلك الصفحة الأكبر من تاريخ النضال العسير مع

الطغاة من قريش ومن سار بنهجهم! دخل فاتحا أبواب الخير والرحمة على من عذبوه وحاربوه بالنار والحديد! دخل وفي جعبته لهم سعادة الدنيا والآخـرة! دخل وفي يديه حبال السماء! ينتشل بها أهل مكة الغارقين في الظلام! دخل شاهرا سيف الحق ليمزق به شباك الضلال والعناد!

ها هو النبي الحبيب صلى الله عليه وآله يقتفي فعل جده الخليل! حاملا بيمينه معول التوحيد! ضاربا به تلك الاحجار الصماء! مهشما اسطورتها الوهمية! منكسا هيبتها المنسوجة في عقول الأنفس المريضة! دُمّرت كل الأصنام التي كانت تحف كعبة الرحمن! لم يبقَ منها سوى كبيرها هبل! إله أبي سفيان وأمية الحقد والطغيان! حتى أتاه الرسول صلى الله عليه وآله ووقف أمامه! سكن برهة ثم أخذ يستجمع قواه! رافعا يده ومعوله الى الأعلى! ليستمد من السماء القوة الإلهية والعظمة الربانية! فكانت يد الله فوق يده! حتى أخذت القوة العظمى تهوي كالبرق الخاطف الى الصنم الأكبر! فلم تبقِ منه شيئا ولم تذر! وبذلك هوى الكبرياء القرشي! وانهدم الشرك من رأسه! وبدأ الحبيب صلى الله عليه وآله يرتل: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[1].

بقي المسلمون في مكة ومعهم النبي صلى الله عليه وآله بما يقرب من عشرين يوما، ومن هناك قام صلى الله عليه وآله ببعض الاعمال أهمها أخذ البيعة من الناس في مكة

(١) الاسراء: ٨١.

رجالا ونساء! حتى أن هند زوج ابي سفيان وآكلة كبد حمزة بايعت النبي ﷺ على الايمان بالله، وعدم الإشراك به، وأن لا تسرق ولا تزني! كما عمل من هناك على ارسال السرايا والمبلغين الى الناس ان يخلعوا الاصنام، ويرشدوا بهدي الرحمن! فأتت أكثرها بنتائج ايجابية في صالح الاسلام والمسلمين.

معركة حنين!

دروس مرت وأخرى ما زالت! تقول ان النصر لا بد وأن يحالف النبي صلى الله عليه وآله ومن معه! فكل من وقف ضده كان مصيره الأسى والخسران! بل حتى تلك التي خسرها المسلمون وربحها أعداؤهم، ما كانت إلا لأجل مسمى وكان النصر للمسلمين! لحكمة إلهية صبت في النهاية في صالح المسلمين!

علم المسلمون كل من هوازن وثقيف ونضر ومن تحالف معهم من القبائل الأخرى قد تعاهدوا على التحشد ضد النبي صلى الله عليه وآله والقضاء عليه! فخرج النبي صلى الله عليه وآله بجيش عظيم قوامه اثنى عشر الف مقاتلا! فتوجه بهم الى الجنوب الشرقي من مكة حيث موطن هوازن وأحلافها!

وكانت هوازن ومن معها من الكافرين قد حشدت جيشا جرارا، وبعد ان علموا بقدوم المسلمين نحوهم تراشدوا على رأي ان يخرجوا ويكمنوا في مدخل الوادي المؤدي لهم! حيث هم في الأعلى والمسلمون في الأسفل فينقضوا عليهم انقضاض رجل واحد! وفعلا تم ما أرادوا! فقد أتى المسلمون وفيهم النبي صلى الله عليه وآله! تقدموا فجرا بعد ان هجعوا ليلهم، وما ان دخلوا الوادي حتى تكالب عليهم الأعداء من كل

جانب! فقتلوا من المسلمين قتلا عظيما، حتى بدأت الكتائب بالفرار! واستبشر المنافقون المرافقون للمسلمين بذلك! ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلا بعدد الأصابع! فعادت محنة أحد من جديد! وعادت معها المصائب والويلات! وكان البطل الذي يعتمد عليه كالعادة هو علي بن ابي طالب عليه السلام! فهو سيف الله ويد رسول الله!

فما أشبه حنين بأحد! وما أقربها اليها! فروا من الحرب وتركوا النبي صلى الله عليه وآله مع أفراد قليلين! تركوه يواجه المصير الذي خطه القدر عليه! الى ان استطاع بطل الاسلام علي عليه السلام ان يقتل قائد الكافرين! فصاح حينئذ العباس عم النبي بصوته العلي الجهوري بالمسلمين، يحثهم على اللحاق بالنبي ومن معه، بعد ان كسر العدو بقتل قائده العظيم! عندئذ رجع المسلمون الى المعركة، فحمي الوطيس بالتحام الجانبين! وأبلى المسلمون بلاء حسنا في المعركة! حتى انكسر الظالمون، وولوا على أدبارهم يتخافتون! وبذلك انتصر الاسلام على الشر وأحلافه، وطويت صفحة صعبة ومرة على الاسلام ونبيه والمسلمين.

ولولا ثبات الامام علي عليه السلام لما ثبت الآخرون من بني هاشم ومعهم ابن ام ايمن الذي استشهد في المعركة، وهذا الثبات هو الذي أعطى كثيراً ممن انهزموا لكي يعودوا الى المعركة ليقاتلوا مع اخوانهم المدافعين عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد وبخ الله سبحانه وتعالى المسلمين الذين انهزموا، وفي المقابل مدح الصامدين الثابتين في الموقف، الباذلين انفسهم في الدفاع

عن نبيهم، حيث قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾[١].

---

(١) التوبة: ٢٥.

غزوة الطائف!

انتصر الاسلام عل الكفر من هوازن ومن معها! لكن رأس التحشيد مالك بن عوف النضري ما زال معززا مكرما! إذ لاذ بالفرار صوب الطائف عند بني ثقيف! تلك المدينة التي ما زال النبي صلى الله عليه وآله يحفظ لها في ذاكرته الألم والأسى الذي لقيه من سكانها! أولئك الناس الذين استُعصي الاسلام أن يدخل الى قلوبهم!

حينئذ رأى النبي المسدد ان يتجه صوب الطائف ليحاسبهم على ما فعلوه واقترفوه بحق الاسلام وأتباعه! فما دام الجيش قد انتصر في حنين، وما دامت المعنويات عالية، وما دامت الامور على ما يرام! فَلِم لا يُعرَج الى من لم يُؤمَن خطرهم! خصوصا بعد ان أجاروا العدو الكبير مالك بن عوف مسبب معركة حنين ومآسيها!

وصل الجيش الاسلامي الى مشارف الطائف، ووقف المسلمون يفكرون حول كيفية النفاد الى داخل المدينة الحصينة، التي امتازت بها ثقيف الثرية الغنية، حاول المسلمون لكن دون جدوى، فأعطوا العديد من الشهداء وأعطوا الكثير من الجرحى، فكر النبي صلى الله عليه وآله بوسيلة ما، حتى استجلب أفرادا من عشيرة دوس القاطنين جنوب مكة، الذين كان لهم

خبرة في صناعة المنجنيق واستعماله، مع ذلك لم يتمكن المسلمون من اختراق تلك الحصون المنيعة.

حين ذاك لم يجد المسلمون بدا سوى تهديد الثقفيين ببساتينهم ومحاصيلهم التي تمثل العماد في ثروتهم وثرائهم! وهذه الوسيلة قد استخدمت سابقا مع اليهود، فأتت أكلها بنجاح بعض الشيء! إذ خرج عدد من الثقفيين الى النبي صلى الله عليه وآله يترجونه في العفو عنهم، وبعد ان علم النبي منهم ما كان عند المتحصنين من سلاح، عزم على ترك الحصار بعد ان رأى علامات التعب بادية على وجوه أتباعه، فرجع الى المدينة بعد ان عرج على مكة لأداء العمرة والشكر والحمد لله على منه ونصره المؤزر للمسلمين.

تبوك الثأر!

بالأمس قاتل النبي صلى الله عليه وآله الروم برجال المدينة فقط، واليوم يسير بها وبمكة! سيتحرك بجيوش عظيمة للبلدين مع قبائل المحيط بهما، سيتحرك الحبيب صلى الله عليه وآله تحركا جديدا لم يُشهد بمثله من قبل! أزيل الستار عن عرض جديد! سيذهب صلى الله عليه وآله هو بنفسه ليأخذ الثأر من الروم، فتقر عيون الشهداء المُنعمين بما عند ربهم من نعيم!

آن الأوان أن تُزف الشام بالجزيرة!

وحان الآن أن يُمزج الربيع بالهجيرة!

هتفت مؤتة الروم بسُقْيَةٍ..

فخانت بعد ان كانت جديرة!

سيأخذ الفتال سيفا فيشحذه..

ليطوي عارا لأخته الصغيرة!!

سيأخذ الرمح العظيم فيرهبها..

يخط أنيابها الحمراء ملحمة كبيرة!

حيّاك يا باب الفتوح من وقعة!

أعدْتِ للدين عطره وعبيره!

يا زهو أمة على أعقاب نكسة!

روعك المظفور قد ألقى معاذيره!

بالأمس مدينة كانت وحدها..

واليوم جيشٌ، مزق الرومَ أساطيره!

جهزه النبي الحبيب صلى الله عليه وآله في السنة التاسعة من الهجرة المباركة جيشا عظيما، يبلغ قوامه ما يقرب من ثلاثين ألفا من المقاتلين، وتوجه بهم الى الشمال! حيث الامبراطورية الرومية تقبع على صدور المستضعفين ووجودهم، وكان الجو آنذاك حارا والأراضي جاردة، لا نبات فيها ولا ثمار! فتثاقل لذلك كثير من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وقالوا لا طاقة لنا بالعراك والحراب في هذه الايام الصعبة! انظرنا حتى يأتي الشتاء والبرد، وتأتي السماء درها والأرض أكلها! وكان النبي صلى الله عليه وآله على حذر من ان يترك المدينة خالية ممن يكون شوكة في عين من يريد ان يحدث انقلاباً بعد خلوها من قائدها وجيشه! لذلك ترك عليا فيها! لأنه أهل لأن يحبط المؤامرات والدسائس الداخلية!

على كل حال نفر الحبيب ونفر معه المقاتلون الى جهة الشام! وبقي

الامام عليه السلام فيها! فأرجف المنافقون المتخلفون والنافرون للحرب على حد سواء أن النبي صلى الله عليه وآله كره قربه وساء فيه رأيه! فآسى ذلك الامام! واتّبع النبي صلى الله عليه وآله الى مسافة من الطريق حتى أدركه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «**ما جاء بك؟** فقال: **يا رسول الله زعمت قريش أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وكرهت صحبتي**، فقال الحبيب صلى الله عليه وآله: **أما ترضى أن تكون مني بمنزل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»[(١)].

وفي الطريق تعبت ناقة أبي ذر، فتخلف عن الجيش قليلا ليريح راحلته، وقد قيل للحبيب ان ابا ذر قد تخلف! فقال صلى الله عليه وآله: **أتركوه فإن كان فيه خير فإنه سيلحق بنا!** وبعد ان استراحت ناقة الصحابي ابي ذر، زجر بها ليحق بالنبي وجيشه، وبعد برهة لم يجد بدا من الاعتماد على نفسه، فنزل من على ظهر الدابة الهزيلة! وأخذ يجدّ في المسير راجلا ومسرعا! ومن جانب آخر أشيع عنه بين المقاتلين أنه تخلف عنهم؛ لأنه جبن وخاف عظمة الروم! وما إن ساروا ساعات حتى رأوا خيال شخص من بعيد يمشي راجلا ووحيدا! حتى أشخصه بعضهم فصاح يا رسول الله إنه أبو ذر الغفاري! فقال الحبيب صلى الله عليه وآله: «**يرحم الله أبا ذر! يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده! ويشهده عصابة من المؤمنين**»[(٢)].

---

(١) الخصائص للنسائي: ٨٢.

(٢) السيرة النبوية، للسيد سامي البدري ص١٩٢.

وصلت الكتائب الاسلامية الى تبوك عند مشارف أرض العدو! هنالك ألقى الله سبحانه الرعب في قلوب الذين ظلموا! فلم يتجرأ أحد من أن يواجه القوة النبوية! فصالح أصحاب تلك المدن النبي صلى الله عليه وآله على الجزية! وأقام الحبيب صلى الله عليه وآله بضعة عشر يوما! منتظرا قدوم ملك الروم لمنازلتهم! فلم يأت أحد قط! فعادوا جميعا الى المدينة ظافرين بالانتصار الكبير الذي حققوه دون حرب تذكر! مع ما جنوه من الغنائم في الجزية من قبل المتنصّرين.. فكان ذلك عوضا لتلك الخسارة، ولتلك الهيبة التي فقدت مع الروم في معركة مؤتة، وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها الحبيب صلى الله عليه وآله.

مؤامرة العقبة!

ما زال النفاق وأهله يتربص بالإسلام وأهله! وما زالت آمالهم تنهض كلما وجدت فرصة! وها هم الآن يخططون لقتل النبي صلى الله عليه وآله! حقدا وعِداءً لدين الله! وحسدا لرسوله الكريم! وجزاء لما عمله معهم من التكريم والتبجيل! فقد جعل لهم من الغنائم كبقية المسلمين المجاهدين! بل كان يعطيهم أكثر من غيرهم لكي يُليّن قلوبهم ويستجلب الإسلام إلى صميم قلوبهم!

عادت جيوش المجاهدين من تبوك، وقد اتفقت جماعة من الذين في قلوبهم مرض على قتل النبي صلى الله عليه وآله! وأن ذلك سيكون في أثناء مرورهم ليلا بالعقبة التي سيجتازونها! وهي مكان مرتفع وبجنبه وادٍ منبسط، وقبيل أن يصلوا الى العقبة أُخبر النبي صلى الله عليه وآله من قبل الوحي بتلك المؤامرة الآثمة! حينها أمر النبي صلى الله عليه وآله الجيش بكل مقاتليه أن يسيروا من خلال الوادي، أما هو صلى الله عليه وآله فسيتخذ العقبة طريقا بمعية عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان.

وأثناء مسير النبي وصاحبيه عمار وحذيفة أحسوا بأن أحدا ما يسير خلفهم! وكان الوقت ليلا، فعرف الحبيب أنهم المنافقون الذين

تآمروا على قتله! فأمر حذيفة الذي كان مكلفا بسوق الناقة التي يركبها النبي ﷺ بأن يذهب لهم ويرجعهم! فراح حذيفة وزجرهم بشدة على عصيانهم أمر الرسول ﷺ، فأحسوا ان النبي ﷺ قد عرف كيدهم وما ينوون فعله! لذلك نزلوا سراعا الى بطن الوادي ليلحقوا بجماعاتهم، ولما رجع حذيفة الى النبي ﷺ سأله الحبيب: **هل عرفتهم**؟ فأجاب بأنه عرف بعضا منهم من خلال ملبسهم وبعض القرائن الأخرى! وكان عددهم خمسة عشر كما قيل، وقد أخبر النبي كلا من حذيفة وعمار بأسماء المتآمرين[١]! ولم تفصح أكثر المصادر عن الأسماء التي ذكرها كثير من الرواة! فلعل ذلك مما يمس بعض الصحابة الذين تمتعوا بالقداسة والحصانة!

وبعد أن أسفر الصبح عن وجهه، أتى صحابي من كبار الأنصار الى الرسول، وهو أسيد بن حضير، واستفهم عما كان منه بالأمس، فأخبره النبي ﷺ بكيد تلك العصابة المنافقة! وما أرادوا ان يفعلوه به! فثار من سماع ذلك وطلب من النبي ﷺ ان يأمرهم بقطع أعناقهم! فرفض النبي ﷺ ذلك وذكر أنه لا يريد ان يقال عنه ان محمدا بعد ان قاتل الكفار وانتصر قتل أصحابه!

يا ترى ماذا سيفعل المنافقون إذا غاب النبي عن المحضر؟ فهم رأوا كل العلامات والمعجزات ولم يؤمنوا! ورأوا فيه القوة العظيمة

(١) ينظر المغازي للواقدي: ٣/ ١٠٤٢.

والتسديد المطلق من الله ولم يتوانوا عن الكيد به! كل ذلك والنبي في عنفوان مجده وقوته ان صح التعبير! فماذا سيكون منهم بعد ان يرحل الحبيب الى حبيبه! ويترك وراءه آلاً وأهلا يُضمر تجاههم كره وحسد عظيم!

الكشف الإلهي وسورة براءة!

حدث لا نظير له! وبيان لا أفصح منه ولا أبلغ! فعل لا يمكن أن يؤول بغير ظهوره! ولا يمكن ان يُخرّج وفق أهواء ومسبقات عقدية! وإذا كان المنافقون فيما مضى قد أرجفوا بعلي في عدم اصطحاب النبي صلى الله عليه وآله له في معركة تبوك.. فما عساهم ان يفعلوا في قضية سورة براءة؟ وكيف يمكن للذين وقعوا ضحية دسّ أهل النفاق في وقتنا الحاضر ان يؤولوا ذلك الحدث العظيم، الذي كشف عن عظيم مكانة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ودوره الأصيل في خلافة النبي صلى الله عليه وآله!

حصل في السنة التاسعة من الهجرة المباركة ان نزلت سورة براءة، فأرسل النبي صلى الله عليه وآله أبا بكر وعمر بمعية ثلاثمئة من الرجال، وأمرهم ان يذهبوا بها الى مكة وإعلام الناس بتفاصيلها على رؤوس الاشهاد أيام الحج، حيث أمر الله تعالى نبيه الكريم ان لا يجدد العهود والمواثيق التي ابرمها مع الكافرين بعد اتمامها! بعدها سيكونون في حل من المسلمين! وأن السنة القادمة لا يسمح لمشرك ان يدخل مكة لأداء الحج، كما لا يسمح بالطواف لبعض المنحرفين الذين كانوا يطوفون بالبيت العتيق عراة!

وما ان سار ابو بكر ومن معه عن المدينة قليلا حتى نزل الوحي على الحبيب يأمره بأن لا يؤدي عنك إلا انت أو رجل منك، فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله عليا وبين له القضية، فأجابه الامام ولحق بأبي بكر ومن معه، وما ان وصل إليهم أخبرهم بما كلفه النبي صلى الله عليه وآله، فأخذها الامام وسار بها الى مكة.

رجع أبو بكر ومن معه الى المدينة مطأطئ الرأس حزينا كسيرا، سأل النبي صلى الله عليه وآله واستفهمه: هل نزل فيّ شيء؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله بالنفي، وعلل له بأن ذلك الشيء ليس من عنده، وانما هو من عند الله[1].

فالحمد لله على منّه وبيانه! الذي اقتضت حكمته ان تسير الاحداث كما رُسم لها! لوحة واضحة المعالم لا ينكر مضامينها ومقاصدها بألوانها ورموزها إلا معاند مكابر، ختم الله على قلبه.. وأغشى بصيرته، فأضحى للشيطان عونا، يطفئ نور الله! والله متم نوره ولو كره المنافقون!

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٤٢/ ٣٤٧.

الوفود الى الاسلام!

ميلاد جديد على ظلال الفتوح! ونسيم إيماني بدا عطره يفوح! كُسرت قيود الضلال، وفُتحت أبواب الحَجر على الناس! فتوجهت القبائل والعشائر زرافات ووحدانا الى المدينة! لتقف بين يدي المنقذ، وتتشرف بنور وجهه البارق بالعز والبهاء! ذهبت بعد ان هُدمت جدران العزل التي بنتها الأيدي الشيطانية! التي كانت أسفينا أمام فطرة الناس المنجذبة الى الحق المبين.

ففي السنة العاشرة من الهجرة المباركة وبعد الانتصارات الباهرة على الكافرين في مكة وحنين وتبوك لم يبق أمام كثير من القبائل أي مانع أو حاجز يعرقل أو يهدد جنوحهم نحو الاسلام! فها هي الناس قد تجحفلت أفواجا الى المدينة المنورة، تعلن الولاء للاسلام والبيعة للنبي المقدام! قبائل وجدت في الاسلام عزا قد كان مسلوبا، وأمانا بمنطق الغاب صار منهوبا! الأمل المفقود قد أتى بعد ان لم يكن! حتى صار ذلك واقعا ملتمَس الأثر! فأعزهم الله بالإسلام.. وأعزوا الإسلام بسوادهم!

اليمن تُسلِم بعلي

هكذا هـم أهـل اليُمن والايـمان! لا تلين قلوبهم الى قلوب صادئة! لكن ما إن تناديهم قلوب صافية الايمان فإنها سرعان ما تلين لها وتنجذب! فهم مصداق القاعدة التي تذهب بأن كل شيء لمثله منجذب! وأن الطيور على أشكالها تقع!

أرسل النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد الى اليمن يدعوهم الى الاسلام، وما ان وصل حتى دعاهم، لكن من دون جدوى! فلم يقبلوا الدخول في الاسلام! عند ذلك أرسل النبي صلى الله عليه وآله ابن عمه عليا ليقوم بالمهمة التي أُوكلت لخالد، وما ان وصل علي عليه السلام الى اليمن حتى راح الى الناس يدعوهم للإسلام، مبينا لهم مبادئ الدين وأهدافه، فكان كلامه كالماء البارد على قلب ظمآن! ولا غرابة في ذلك، فعلي عليه السلام صاحب القلب النقي، والنية الصادقة والصافية لهداية الناس، كلامه كان من القلب الى القلب، حتى ان همدان دخلت الاسلام كلها في يوم واحد! فبلغ الخبر الى النبي صلى الله عليه وآله، عند ذاك سجد لله شاكرا، حتى دعا لهمدان فقال: «**السلام على همدان**»[1]! فكرر ذلك ثلاثا.

---

(١) موسوعة الامام علي: ٢/ ١٢٩

وهذا العمل بدا أثره لاحقا، حيث نجد ان لأهل اليمن دورا إيجابياً جداً مع الامام علي عليه السلام وأهل بيته الكرام! والى الآن نجد أن اليمن بلد متأصل الولاء للعترة الطاهرة، فكأن اليمانيين مصداقا لقول الحبيب صلى الله عليه وآله: «**الإيمان يماني..**»(١) فكثير من قادة الامام علي عليه السلام كانوا ينتمون الى هذا البلد، وكثير من شهداء كربلاء تعود أصولهم إليه، حتى أن أهم الحركات الموطئة للظهور نسبت الى اليمن! فاليماني في التراث الامامي يمثل الحركة الأقرب والأكثر تأثيرا في فسطاط الحق! عجل الله تبارك وتعالى ورود تلك الآمال، وتلك الأمنيات التي بدأ المستضعفون بمجرد ذكرها تثور قلوبهم شوقا ولهفا؛ للخلاص من الويلات والمآسي التي يرتع بها الفتيت المبعثر على أرض الله.

(١) البحار: ٢٢/ ١٣٦.

نصارى نجران والمباهلة!

وفد أُوفِدت معه الآيات الباهرات! جاءت تُزف ومعها البشرى العظيمة! أتت وفي يدها الشهادة الكبرى بسماوية الاسلام وإلهيته! تقدمت على بساط أخضر تحمل ورود التهنئة والانتصار!

فشكرا وحمدا للآتي بنجران كاشفاً آية من الآيات المكرمات! وشكرا لمن رسم أحداثا على لوحة الخلود! لوحة من تأمل في ظلالها وغاص في أعماقها أخرج مكنون لآلئها! وأفشى سرّ عظمتها! حباها الله بالبينات الواضحات التي لا يمكن أن تُطمر تحت تراب الجاهلية! إنها وضعت النقاط على حروف التاريخ!

جاءت تلك الحشود مزينة بأبهى الألوان! إنها وفود نجران النصرانية، رجال تزدان صدورها بحلى الصليب، وترتدي أجود الثياب من السندس والحرير، أتت الى النبي صلى الله عليه وآله لتحاوره في الاسلام! أتت يملؤها الأمل بأنها ستفوز في النزال! لكنه نزال ليس بالسيف والنبال! إنما هو نزال الفكر والمنطق والعقيدة!

بدأ الحوار الديني بين النبي صلى الله عليه وآله ورجال الدين النصارى، حوار

يجسد القمة في تقبل الرأي والرأي الآخر! حوار التعايش الديني الذي سبق المؤتمرات العالمية المعاصرة، تلك التي يدعو لها الغرب والشرق بعنوان حوار الحضارات! حوار أفحم فيه النبي صلى الله عليه وآله من يدّعون أنهم أهل الحق! حتى أبطل حججهم، وفند عقائدهم، وبين لهم كل ذلك بالأدلة العقلية والنقلية التي يتفق عليها الجانبان! ومع كل ذلك البيان إلا انهم لم يؤمنوا وبقوا على انحرافهم، حتى طلبوا من النبي صلى الله عليه وآله المباهلة! وهي حجاج من نوع جديد وغريب على المسلمين! وهي تعني التضرع الى الله ودعوته في ان يبين الحق وأن يعاقب الكاذب بأشد العقاب وهو الطرد من رحمة الله!

اتفق الطرفان على المباهلة في اليوم الثاني صباحا أمام الملأ والناس جميعا! فقال النصارى فيما بينهم: انظروا لمن سيخرج معه الى المباهلة، فإن كان أهله وخاصته فلا تباهلوه! لأن ذلك دليل على صدقه وأحقية دينه! وفعلا خرج النبي ومعه ابنته فاطمة وبعلها وابناها صلوات الله عليهم جميعا.. فأنزل الوحي على الحبيب صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[١]، عند ذلك فزعت النصارى وخافت ان لا تقوم لهم قائمة اذا باهلت! بل أيقنوا انهم إن باهلوا فنهايتهم حتمية لا محال! فصالحوا

---

(١) آل عمران: ٦١.

النبي صلى الله عليه وآله على البقاء على النصرانية مقابل دفع الجزية كضريبة للدولة التي تعمل على توفير الأمن لهم والعيش الكريم تحت ظلالها الوارف، وبذلك انتهت حلقة مهمة من حلقات التأييد الالهي والتسديد الرباني الذي حف بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين!

أمارات الرحيل!

بعد العناء الكبير، وبعد الجهاد المرير، وبعد ان أرسى قواعد البناء، بدت علامات رحيله صلى الله عليه وآله تترى! وصارت رسل الموت يوما بعد يوم في عينيه تُقرا! فأخبر أتباعه بعدما رأوا منه ما لم يعهدوه! وأول ما أعلم بضعته الطاهرة عليها السلام! حيث أخبرها بأن جبرائيل عارضه القرآن هذا العام مرتين! في حين أنه كان يعارضه مرة واحدة كل عام! فأبان لها بأن ذلك ما هو إلا لقرب أجله ورحيله الى رحمة ربه وحبيبه! فكان ذلك على الزهراء كالصاعقة القاصمة!

وعلى إثر ذلك رأى وبوحي من ربه ان يقوم بأعمال لا بد من انجازها قبل السفر عن الدنيا، فكان ان عزم على حج بيت الله الحرام، وزيارة الديار والأهل والأوطان! زيارة مودع مفارق! زيارة حزين على بقعة قُطفت من قلبه! فنال من أهلها وكبّارها أبشع ألوان العذاب والتنكيل.. زيارة واضع لخطوط وخطط على الأمة أن تقتفيها ولا تحيد عنها؛ لضمان سيرورة الدين في طريقه الصحيح.

حجة الوداع!

ثقل عظيم وإبلاغه أعظم! سيسير بحمله الحبيب صلى الله عليه وآله الى مكة! بضاعة ما أثمنها وما أخطر وقعها! سيُخرج بعضا منها على الناس في حجة الوداع! ويترك الباقي يصرح بها بطريق عودته حين الوصول الى غدير خم! نَفَرَ الى مكة ليعلن من على صعيد أرض اسماعيل وابراهيم! من أرض الآباء والأجداد! من أرض قبلة الموحدين! من أرض الطهر والدين! من مكة هاشم وشيبة الحمد وشيخ البطائح الرزين! يعلن من هناك عما سيضمن للدين بقاءه، وللرسالة طراوتها، وللعقيدة نقاوتها، وللأمة بصيرتها، وعدم تجاذبها بين امواج البحار العاتيات بالأفكار والعقائد المنحرفة!

في السنة العاشرة من الهجرة المباركة شد الحبيب صلى الله عليه وآله رحاله الى مكة لأداء فريضة الحج الأخيرة، ففي الخمس الأواخر من ذي القعدة خرج صلى الله عليه وآله بمعية الغالبية من المسلمين.. فكيف لا يخرج غالبيتهم معه وهو آخر عهد لهم به في هذه الفريضة؟! كيف لا وهو الذي حشدهم وحثهم على ذلك العمل النبيل ليشهدوا ما سيعلنه على الأشهاد من أمور مصيرية تهم المسلمين؟! فطوبى لمن أدرك المسير معه! وطوبى لمن

فاز ببركته ودعائه وتقبيل يديه! حبيب أخرجهم من الظلام الدامس الى النور اللامع بشمس الصباح!

وصل صلى الله عليه وآله الى ديار القدس والحب والولاء الالهي! وصل وهو يعلم أن هذا المجيء هو الأخير! أتى وكله خشية من صعوبة الموقف الذي سيكون فيه المنافقون، عندما يعلن عن البلاغ الرباني العظيم! الذي لا يروق لكثير من الطغاة والذين لم يؤمنوا إلا بألسنتهم! ماذا عساه ان يفعل مع هكذا نفوس؟! وكيف سيبرر لهم ذلك؟! فما أصعب موقفك يا رسول الله! وما أكثر آلامك التي لا يقوى عليها غيرك!

ومما يجدر ذكره ان الامام علياً عليه السلام قد جاء من اليمن فاتحا ولاقى النبي صلى الله عليه وآله قبل الدخول الى مكة، سعد الحبيب صلى الله عليه وآله بهذا اللقاء! حتى دخلا سويا وهما لا يفترقان عن بعضهما!

أتم الحبيب صلى الله عليه وآله شعائر الحج واحدة تلو الاخرى، حتى أتى الى منى، بعدها خطب بالناس والناس بالألوف، والامام علي عليه السلام يوصل كلام النبي صلى الله عليه وآله لمن هو بعيد لا يسمع! وقف صلى الله عليه وآله وقلبه يملؤه الأسى والألم على هذه الأمة التي ستتبع سنن من كان قبلها من الامم! الذين لو دخلوا جحر ضب لدخلوه! هذه آهات أطلقتها شفاه الحبيب صلى الله عليه وآله! آهات كانت تعصر قلبه وتدميه!

وقف صلى الله عليه وآله ينظر للجميع وفيهم من هم ما زالوا على جلافتهم

وقسوة قلوبهم! وقف يتأمل تلك الوجوه الكالحة التي لم تذق يوما طعم الايمان! يتطلع الى تلك الاجسام التي سيُخدع بها الناس، فهم يرونها كأنها خُشب مسنّدة! الذين بمحضره كثيرا ما كانوا يعترضون! فكيف سيكونون بعدما يرحل الى بارئه ويترك أهلا ضعافا وآلاً يحسدهم الناس على ما آتاهم الله من فضله؟!

أخيرا وبعد أن أتته الآيات البينات من ربه تترى، أطلق ما كُلف به من ربه صواعق محرقة على رؤوس الشياطين! فكان مما قاله فداه روحي تمهيدا وتدرجا للهدف الأسمى:

«**أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه عني، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**، ثم قال: **هل تعلمون أي يوم أعظم حرمة؟** قال الناس: هذا اليوم، **قال: فأي شهر؟** قال الناس: **هذا، قال**صلى الله عليه وآله: **وأي بلد أعظم حرمة؟** قال الناس: **بلدنا هذا، قال**صلى الله عليه وآله: **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت أيها الناس؟** قالوا: نعم، قال: **الله اشهد**»[١].

وبعد أن ذكّرهم بأمور غاية الأهمية، عرّج الى ذكر الأمر الصعب! الذي هو كبير على البعض من الذين في أنفسهم مرض، فصرح به أمام

---

(١) البحار: ٣٧/ ١١٣.

الملأ من الناس وعلى الأشهاد، فقال الحبيب صلى الله عليه وآله: «**ألا وإني قد تركت فيكم أمرين إن أخذتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، ألا فمن اعتصم بهما فقد نجا ومن خالفهما فقد هلك، ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد**»[1]. تصريح طالما صرح به أمام البعض وفي أكثر من موقف! إلا أنه هذه المرة يختلف عن السابق تماما!

وداع مكة الأخير!

كم كنت أتمنى ان لي من القدرة على البيان، والمكانة في الأدب؛ كي أستطيع من خلالها ان أنتقي أعذب الكلمات، وأجلاها في التصوير، وأروعها في البديع المنمق المرصع؛ لأترجم تلك الحسرات والآهات التي حُكم عليها بالحبس داخل النفس المتشحة آلام العذاب الطويل! تلك التي كانت قد اجتاحت كيان الحبيب صلى الله عليه وآله حين ودع ديار آبائه وأجداده، ديار الطفولة والصبا والشباب، إنها ديار الأحبة الذين ربوه وآووه وأسندوه! ديار عبد المطلب وأبي طالب وخديجة! أحبة رحلوا إلى ربهم! وتركوا وراءهم ذكريات عزيزة وغالية مع النبي صلى الله عليه وآله! ذكريات بقيت تجول وترتع بين بيوتات مكة وطرقاتها!

أكمل الحبيب صلى الله عليه وآله مهمته التي كانت على عاتقه أن يتممها! أظهر ما كان عليه ان يظهره للناس من أمر أهل البيت الطاهرين! الذين جُعل

(١) البحار: ٣٧/ ١١٤.

منهم قرينا للقرآن الكريم! وبيّن ان لهم السبق العظيم على كل العالمين! ألقى إلى الناس درراً من الوعظ والوصايا التي تتوقف عليها سعادة الأمة، أطلقها كلمات ما زالت تلهج بها شفاه المستضعفين في الأرض كل حين! ولو أُخذ بها لكانت دواء شافيا لتلك الامراض التي طرأت على الأمة بسبب نزوعها عنها بعد الوداع!

ذهب النبي صلى الله عليه وآله قبل ان يخرج من مكة إلى الكعبة المعظمة ليودعها! وداع راحل لا يؤوب إليها بعد ذلك أبدا! راح إلى مهوى القلوب وموطن الوحي الأول وهو يناجي ربه برحمة الأمة، التي ستفجع برحيل نبيها ومخلصها من الظلام إلى النور! فما أرق قلبك يا رسول الله! وما أعظم رأفتك بالناس! بعد ذلك تناول الحجر الأسود وقبله القبلة الأخيرة! وقلبه يبكي قبل عينيه للوداع الأخير! سيفارق الكعبة وهو ما زال لم تشبع نفسه من المكوث في المسجد الحرام!

أخيرا خرج من بيت الله العتيق ليتجه إلى المدينة، وأخذ وهو خارج يتأمل تلك الطرقات وتلك الأحياء والأزقة التي لن يراها ثانية أبدا! ثم يمم وجهه شطر المدينة المنورة يترقب الأمر الالهي له بإبلاغ الناس البلاغ الأعظم!

بدأ يفكر صلى الله عليه وآله بما يضمره أهل الغدر والنفاق من مؤامرات! الذين استبشروا بقرب رحيله صلى الله عليه وآله عن الدنيا، وبدا لعابهم يسيل للانقضاض

على الإسلام بثوب الإسلام! وانتزاع القيادة الدينية والدنيوية من أهلها الشرعيين! الذين انتجبهم لها الله ورسوله! بحيل شيطانية وعادات قبلية متجذرة في أنفسهم المنحرفة! نعم، ان النبي صلى الله عليه وآله كان يرى ان شجرة الجاهلية ما زال عودها طريا أخضر! شجرة مورقة تسقى من عين آنية! ستبقى تؤتي زقومها لمن لم تُكتب له الرحمة! حتى يرث الأرض ومن عليها عباد الله الصالحون.

غدير الإتمام!

نزل الوحي ومعه نزلت زخات المطر على صعيد الانسان المُجدب القافر! أتت حكمة الله لتخلص الإسلام من المتربصين به والكادحين في تحريفه بعدما سيغيب حامله ﷺ عن الساحة! ها هي أطروحة السماء تنزل على النبي ﷺ عند غدير الاسلام خم! وها هي انذاراتها تهدد! إن لم تُبلغ بها فإنك لم تبلغ رسالة الحق للعالمين!

نعم، ففي طريق العودة إلى المدينة وعند غدير خم، نزل الوحي على النبي ﷺ يقول له: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

هكذا إذن أمر تُبع بتهديد! وصل ذلك التهديد حدا بعيدا بحيث وصل به ان بين له ان لجهود التي بذلت في الرسالة والتي استغرقت سنين طويلة ستذهب سدى ان لم تبلغ ما أُمرت به!

امر النبي ﷺ على اثر ذلك الامر الرباني الركب بالتوقف عند غدير

(١) المائدة: ٦٧.

خم وإرجاع من سبقهم وانتظار من خلفهم، واجتمع الحجيج المتمون لأغلب المناطق الاسلامية آنذاك، ثم عمل للحبيب صلى الله عليه وآله منبر من أحداج الابل، وظُلِّل برداء فوق أغصان شجرة من أشعة الشمس اللاهبة! فكان الوقت ظهرا وفي فصل الصيف!

ترى لماذا جمعهم صلى الله عليه وآله بحَرّ الصيف ظهرا؟! ولماذا أمر بجمع الناس من الذين سبقوهم والذين تأخروا عنهم؟! فهل كان الأمر بهذه الأهمية والخطورة؟! وهل كانت القضية ترتبط بالإسلام ومستقبله البعيد إلى يوم الدين؟ أم أنها كانت قضية بسيطة، كما يقول البعيدون عن أهل البيت، وهي رد اعتبار للإمام علي عليه السلام الذي حاول بعض المنافقين الانتقاص منه؟!

ان كل الملابسات التي حفّت بالقضية والقرائن التي رافقتها تدلل وبشكل قاطع على ان النبي صلى الله عليه وآله أراد ان يُثَبِّت للدين ما يضمن استقامته! وما يُبقي له نقاوته! وبخلاف ذلك فالطعن بالنبي صلى الله عليه وآله أولى! وهذا خلاف الدين والعقل والحكمة والمنطق، خصوصا وأن الوحي قد نزل بعد ذلك مرتلا: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[1].

(١) المائدة: ٣.

هكذا إذن عُيّن خليفة للمسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله! وعقدت له البيعة بعد ان خطب بهم الرسول! لكي لا يبقى عذر فيما بعد! فانثال الناس جميعا يهنئون الامام عليا عليه السلام بذلك! وأول الناس كان أولئك الذين انقلبوا عليه فيما بعد وفاة الحبيب صلى الله عليه وآله! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

بدايات المرض وتجهيز جيش أسامة!

وصل النبي إلى المدينة المنورة، بدأ يشعر بالمرض الذي شرع يهجم عليه شيئا فشيئا، وصارت لديه نوبات من الصداع! وأضحى يشتكي منها مرة بعد مرة! فأدرك أنها بدايات المحنة! وعلائم العروج إلى المليك الحبيب جل وعلا!

وفي هذه الحال كل شيء أصبح بالنسبة للنبي أمرا ثانويا إلّا قضية الخلافة والقيادة التي شغلت باله أيما انشغال! فهو بذكائه وحنكته وتسديد الوحي له أصبح عالما بما يخطط له الانتهازيون الذين سيجدون بموته صلى الله عليه وآله فرصة للانقلاب على الشرعية التي أوصى بها!

لذلك فمنذ أن وصل النبي إلى مكة أظهر تكتيكا رائعا، حيث قد شاع بين الناس أنه يريد ان يرسل جيشا كبيرا الى الروم! وبيّن لهم أن الجزيرة العربية كلها تقريبا قد أصبحت أمينة سوى جهة الشمال التي هي في قبال الشام، تلك التي كان يسيطر عليها الروم البيزنطيون! وأن الجيش الاسلامي المزمع إرساله سوف يضم العدد الأكبر من المسلمين ووجوههم في المدينة! ليضمن له كسر شوكة الأعداء، وتلقينهم درسا قويا وبليغا، وبذلك يكون المسلمون قد أدركوا ثأر الشهداء الذين

صُرعوا في معركة مؤتة! كما علل الحبيب صلى الله عليه وآله ان هدف هذا الهجوم الكبير هو كي لا يفكر الروم في التعرض لأطراف الدولة الاسلامية المحاذية لهم!

غير ان الهدف الاساس من ارسال الجيش هو ابعاد كل الذين يُخشى منهم ان يقفوا عائقا بوجه المشروع الرسالي الذي خطط له الحق تعالى منذ بداية الدعوة وإلى الآن! وبذلك يُؤمِّن من مكرهم الذي تعاقدوا عليه، وهو تقمص الخلافة ظلما وباطلا! وإبعاد من يُعلَم أن محله منها محل القطب من الرحى! ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير! ذلك هجّان المسلمين، وحارث أرض الاسلام وزارعها الأمين، امام الموحدين وقائد الغر الميامين، علي بن ابي طالب عليه السلام .

هل تحقق للنبي صلى الله عليه وآله ما أراد؟

ليس كل ما يتمناه الانسان بمدركه! فالأمنيات شيء والواقع شيء آخر! فكم تمنى الحبيب صلى الله عليه وآله للخطة ان تسير بما رُسم لها! وكم بذل من الجهود في سبيل ذلك الهدف النبيل! كل ذلك من أجل الاسلام لا أكثر! فالمأمول ليس كما قد يفهم وهو استلام علي عليه السلام زمام المبادرة وحسب، كلا، فالإمارة عند أهل البيت لا ترقى إلى عفطة عنز على حد تعبير الامام نفسه ! وإنما من أجل ان يقوم عليها القادر بها والمتمكن منها بأتم قيام! حتى يسود العدل والنظام بين المسلمين! وللحق في ذلك مآرب أخرى!

ان الجيش الذي حشده النبي الى قتال الروم والذي كان بقيادة الشاب الصغير أسامة بن زيد قد تثاقل أبـرز الوجوه فيه! معللين ذلك بأنهم لا يريدون ان يرحلوا عن المدينة والنبي ﷺ بهذه الحالة من المرض! لكن النبي وبّخهم وبين لهم انهم قد اعترضوا من قبل على أبيه زيد عندما ولاه ضمن القادة في مؤتة! وبعد ان ألح النبي عليهم بذلك ولعن كل من تخلف عن جيش أسامة خرجوا الى الجرف الذي يجهز فيه للجيش والذي يقع بأطراف المدينة! غير أنهم لم يبتعدوا أكثر من ذلك! وبقوا ينتظرون من يأتيهم بساعة الصفر التي يدخلون بها الى المدينة! ليقوموا بما خططوا له!

تدهور صحة النبي صلى الله عليه وآله!

يا لجرأتك أيها المرض! كيف لك أن تعشش في جسد الحبيب الطاهر! وكيف لك ان تنخره بهذه السهولة المقيتة! تعسا لك ايها الجبار العنيد! وآه وألف آه على جسد طالما كان دواء وشفاء للعليل!

زاد مرضه صلى الله عليه وآله! وساءت حالته الصحية! وصل به الحال الى ان ينام على الفراش! حيث أضحى يعاني من ارتفاع شديد في الحرارة! وصار الصداع بدرجة قوية بحيث أوصله الى فقدان الوعي! وفي الاثناء نجد ان الامام عليا عليه السلام ووجوه بني هاشم والمسلمين يحيطون بنبيهم الطريح على فراشه! والكل يبكي لما حل به ومندهش! والزهراء عليها السلام في وضع لا تُحسد عليه أبدا! وهو مع حاله هذا ما زال يحض المتخلفين عن جيش أسامة الى النفور وعدم عصيان أمره! الى ان وصل الى لعن من تخلف عن ذلك! لكن المنافقين أبوا الّا أن ينفذوا مبتغاهم الذي يهدفون إليه! مما جعل ذلك النبي المنعوت بالرحمة للعالمين أن يغضب عليهم ويدعو العظيم الجبار أن يذيقهم العذاب الأليم في نار جهنم! لما فعلو من عصيان وما سببو له من ألم! ولما سيفتحون من أبواب تسبب للامة الانحراف عن جادة الحق والصواب والطريق المبين!

ساءت صحة النبي الكريم الى حد أدرك الجميع أنه مفارق الحياة بهذا المرض! وكان كثيرا ما يختلي بعلي بعد ان يفيق من نومه أو فقدان وعيه! كما كان يختلي بابنته الزهراء البتول وابنيها الإمامين الحسن والحسين صلوات الله عليهم جميعا، وكأنه كان يريد ان يستزيد من رؤيتهم قبل ان يجيب دعوة ربه الى الرحيل والهجرة عن الحياة الدنيا!

رزية الخميس المؤلمة!

كم تـأذى الحبيب مـن الكفار في مكة! وكـم عانى العذاب والاستهزاء منهم! حتى وصل الحال بهم ان اتهموه بالسحر والكهانة والجنون! فقال بُعيد ما فعلوه به: «**ما أُوذي نبي بمثل ما أوذيت**»!

كل ذلك الألم، وكل تلك التجاوزات، لم تؤثر بالنبي المختار بمثل ما أثر عناد وقسوة بعض الصحابة المتجاوزين للحدود! حيث يذكر تلك المأساة الصحابي ابن عباس برواية ممزوجة بالدمع والألم على رسول الله وما حلّ به من المرض والقهر والأسى! الذي سببه بعض المتجرئين الذين كانوا مع من يحيطون به وهو في آخر أيام حياته!

حيث يذكر ان اهل بيت النبي وأصحابه قد تجمعوا عنده في يوم الخميس، وكان قد وبخ بعض كبار الصحابة الذين تخلفوا عن جيش اسامة! فعرف صلى الله عليه وآله ما عزموا عليه! لذلك طلب من الحاضرين ان يجلبوا إليه كتفا ودواة؛ ليكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده! فعرف العصاة ان النبي يروم ان يكتب في ذلك الكتاب ما هو في غير صالحهم! فانبرى سامريُّ الأمة بمنعهم من الإتيان بما طلب النبي صلى الله عليه وآله! وادعى فوق ذلك

ان النبي ليهجر[1] محدثاً نزاعاً بين الحاضرين، بين مؤيد بكلامه واخر معارض عندها طلب النبي القيام عنه وأنه لا ينبغي عند نبي تنازع! فأعرض بحكمته عن ان يكتب لهم؛ لأنه أيقن ان الكتابة لا تفيد الهدف الذي يروم من أجله الكتابة! ولو فعل ذلك لوجدنا القوم فيما بعد قد ادعوا ادعاءات في حق النبي ما انزل الله بها من سلطان! ولنسبوا إليه من الأمور ما يبرر لهم أهدافهم ومبتغياتهم!

وبعدما خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وآله كان قد أكد على الصلاة وضرورة إقامتها، فسمع أحد الصحابة وهو أبو بكر والظاهر عن طريق ابنته أم المؤمنين عائشة، وراح يريد أن يصلي بالناس إماما، فلما سمع النبي ذلك انتفض وطلب من العباس وعلي أن يساعداه ليصلي هو بالناس صلى الله عليه وآله ثم خطب بالناس وقال مما قاله: «**ألا قد خلفت فيكم كتاب الله، فيه النور والهدى والبيان، ما فرط الله فيه من شيء، حجة الله لي عليكم، وخلفت فيكم العلم الاكبر علم الدين ونور الهدى وصيي علي بن أبي طالب، ألا هو حبل الله فاعتصموا به جميعا ولا تفرقوا عنه... أيها الناس لا تأتوني غدا بالدنيا تزفونها زفا، ويأتي أهل بيتي شعثا غبرا مقهورين مظلومين، تسيل دماؤهم**»[2].

---

(١) ينظر: صحيح البخاري: ١٤/ ٢٨١.

(٢) البحار: ج٢٢/ ٤٨٦.

غروب الشمس!

شمس اشرقت على ركام مبعثر! أوصلت ضياءها الى كل زاوية وبقعة تحت ذلك الركام الأسود! الجاثم على الجزيرة العربية! فجاءت البشرى التي واعد الله بها عباده! فأزالت بنورها أشباح الظلام! وأرست الى بني الانسان ان قوموا الى بارئكم! وخذوا غيثكم الذي كُتب لكم.. بما كنتم توعدون!

نعم، هكذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله! أخرج الناس من الظلمات الى النور! لكن الكثير منهم أبوا إلّا ان يرجعوا الى جحور التخلف والجاهلية! مؤتمرين بالهوى ومصالح الأنا التي لا تعدو ان تبقى أكثر من سنين معدودة! حتى تآمروا عليه في أخريات حياته! بعدما تآمروا عليه وأرادوا ان ينالوا منه قبل ذلك في أكثر من مكان!

فلم يُظلم في التاريخ مصلح بمثل ما ظُلم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله! قضى حياته في سبيل نشر دين الحق في ربوع العالم! ورفع الظلم والحيف عن المستضعفين! فعاش مشردا من أجل ان يوفر للمضطهدين ملاذا آمنا! وعاش جائعا لكي يُشبع من تضور جوعاً! كما عاش فقيرا ليواسي أولئك المصطفين طوابير على طرقات الحرمان! حتى يقوم برفع الغبن

عنهم، قضى عيشه مظلوما ليبني صرح العدل المهدّم! فكان بحق السراج المنير للكون جميعا!

عاش مصلح الإنسانية الأعظم ثلاث وستين سنة! أمضى تلك السنين صحيح البدن قوي المراس! الى أن وصل أخريات حياته المباركة فتضعضعت عافيته! فعانى الألم الشديد والصداع في رأسه! وأكثر منه عانى الألم المعنوي جراء عناد صحبته! الذين انقلبوا على الأعقاب!

جاء يوم الاثنين من العام الحادي عشر من الهجرة النبوية المباركة والنبي مسجًى على فراش الموت! طريح البدن لا يقوى على الحركة! ساعة يُغمى عليه وساعة يفيق! والآل والأحبة محيطون به! وهم بين باكٍ عليه وآخر يصلي! إشفاقا على حال النبي الأكرم! والنبي صلوات الله عليه وآله يعاني بين شدة الألم ومرارة العصيان والارتداد على الأعقاب! فكم كان يحمل من الهم الكبير على الاسلام وأهل بيته؟! وكم كان يتلوى من ذينك الامرين؟! الى أن جاءه ملك الموت عزرائيل! فخيره بين الحياة والموت! فاختار المصطفى جوار ربه! فكان عزرائيل عن يمينه واسرافيل عن شماله والامام علي عليه السلام يحتضنه! وبدأ ملك الموت بانتزاع روحه الطاهرة! الى أن نهض علي وخاطب الناس بالعزاء!

كان جلّ همّه صلى الله عليه وآله ضمان ديمومة الاسلام بكل حيثياته! وأن يكون من ارتضاهم الله عز وجل قادة الدين وعموده الذي يُتكأ عليه! لكن

تلك الإرادة اصطدمت بهوى الشيطان وأتباعه! الذين تحالفوا جميعا على الايقاع بالمشروع الرسالي الذي يحفظ الدين من الهاوية والاندراس!

ورغم نجاحهم النسبي إلّا انهم لم يستطيعوا إطفاء نور الله الذي اخترق شعاعه كل العوازل الظلامية! وأتى الى من هم أهل لاستقبال فيض الرحمن! فكانوا بحق شعلة الأمل الموعود التي بها سينهض القائم من آل محمد ليقيم العدل الإلهي العظيم، الذي طال انتظاره مذ ان وجدت الخليقة على الأرض.

ونحن ههنا نقول للرسول الكريم.. على رسلك أيها العظيم! أيها الراحل الكبير اطمئن! فللدين أنصار كُثُر! لا يهولنك ما تعاقد عليه شياطين الجن والإنس! فإن غروبك عن الأمة لا يعني انتهاء النور! فشعاع شمسك ما زال يسري إلينا! رغم تلبد السماء بغيم المرتدين والمارقين والمعاندين! فنم قرير العين بعد ان كفيت ووفيت! فسلام عليك يوم ولدت، ويوم تموت، ويوم تُبعث حيا!

المحتويات